الْـخِطَابُ الْـحِجَاجِيُّ فِي مُؤَلَّفَاتِ عُلَمَاءِ الْإِعْجَازِ فِي الْقَرْنَيْنِ الرَّابِـعِ والْـخَامِسِ الْـهِجْرِيَّيْنِ

د. ليلى محمد حمد الشمري

أستاذ مساعد-إدارة تعليم جدة

l.alshammari@hotmail.com

المستخلص

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن المساهمة البلاغية، والنقدية لعلماء الإعجاز على الصّعيديْن النظريّ والتّطبيقيّ، ومظاهر علاقة المدونة الإعجازية بالحجاج. حدود هذه الدراسة هي: رسالة الرماني (النكت في إعجاز القرآن)، رسالة الخطابي (بيان إعجاز القرآن)،كتاب الباقلاني (إعجاز القرآن)، الجزء السادس عشر من موسوعة (المغني) للقاضي عبد الجبار(إعجاز القرآن)، و(الرسالة الشافية) و(دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني . اتبعت هذه الدراسة المنهج الاستقرائي لحصر أهم الأساليب و التقنيات الحجاجيَّة في المدونة و توسلت بعناصر المنهج التداوليّ، مع تطبيقٍ لأهم نظريات الحجاج. تناول المبحث الأول :المقاربة النظرية لمصطلحات الدراسة (الحجاج و التداولية) و المبحث الثاني :مستويات التداوليَّة في الخطاب الحجاجيّ لعلماء الإعجاز، والثالث: الحجاج اللغوي، (الروابط و العوامل الحجاجيَّة)، والرابع :الحجاج البلاغي في (التركيب ، الصورة)، ثم الخامس : الحجاج العقلي (الاستدلال المنطقي، السببي ، بالتمثيل). أظهرت النتائج ظهور اللغة الحجاجيَّة البليغة التي استخدمها علماء الإعجاز ؛ لتكون نموذجًا يُحتذى، و التقارب بين بنية الحجاج في المدونة ،وبينها في الدرس اللساني الحديث ،على اختلافٍ بينهما في آليَّة التناول، و ظهور تعدُّد الأساليب الحجاجيَّة بين لغوي و بلاغي وعقلي؛ ممَّا أكسب المدونة الطبيعة الحجاجيَّة، التي تهدفُ إلى الإقناع بشتى الوسائل ؛ ليخلصوا جميعًا بأن أعظم أوجه إعجاز القرآن الكريم يكمن في نظمه وإعجازه البيانيّ.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، الكلام، علماء الإعجاز القرآنى، التداوليَّة

مقدمة:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على المبعوثِ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبِه أجمعين، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدين، وبعد:

فلقد كان القرآن الكريم المحور الأمثل الذي دارت حوله علوم العربية التي أولته جلَّ عنايتها، ووقفت على خدمتِه وفِقهِ بيانِه ومعانيه، وتأتي البلاغة في ذروة علوم العربية اشتغالًا بتدبُّرِ البيان القرآني وجلاءِ أسرارِه، وأخصُّ ميادين البلاغة خدمة للبيان القرآني هو ميدانُ الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، بل يمكن القول بأن تطور البلاغة العربية واكتمالها إنما تم في كنف دراسة الإعجاز القرآني، ومحاولة استظهار خصائصه

البيانية، التي تعد أحد أوجه إعجازه.

أهمية الدراسة:

- تعد مؤلفاتُ علماءِ الإعجاز حجرَ الأساسِ لعلم البلاغة العربي، ويكفيها شرفاً أنها تدور حول البحث في أسباب بلاغة القرآن الكريم واستنباط أسس البلاغة القرآنية.

- بما أنَّ الخطاب في حديث علماء الإعجاز حول بلاغة النظم القرآني خطابٌ حجاجيٌّ بالدرجة الأولى، حيث يقصد إلى الإقناع وسوق الحجج والبراهين على تفوق النص القرآني وإعجازه؛ جاءت هذه الدراسة لتجلِّي شيئًا من تقنيات الحجاج وأبعاده المختلفة في مدونة الدراسة؛ لإبراز اللغة الحجاجية البليغة التي استخدمها علماء الإعجاز؛ لتكون نموذجًا يحتذى.

- ظهور تحولات لغوية حديثة، وعلى رأسها ظهور علم اللسانيات في بداية القرن العشرين ميلادي، ممّا أدّى إلى تطوّر نظريّة الخطاب عمومًا، فأمست البحوث البلاغية مركوزة على مقوّمات الأدبيّة والتقنيات الحجاجية.

أهداف الدراسة: الكشف عن المساهمة البلاغية، و النقدية لعلماء الإعجاز على الصّعيديْن النظريّ والتّطبيقيّ، وتمظهرات علاقة المدونة الإعجازية بالحجاج .والوقوف على عناصر الحجاج ،و ما أمكن من تقنياته وأساليبه.

حدودها: رسالة الرماني (النكت في إعجاز القرآن)، رسالة الخطابي (بيان إعجاز القرآن)،كتاب الباقلاني (إعجاز القرآن)، الجزء السادس عشر من موسوعة (المغني) للقاضي عبد الجبار(إعجاز القرآن)، و(الرسالة الشافية)و (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني .

منهجها: هو المنهج الاستقرائي لحصر أهم الأساليب و التقنيات الحجاجيَّة في المدونة و توسلت بعناصر المنهج التداوليّ ، مع تطبيقٍ لأهم نظريات الحجاج .

خطة الدراسة : تكوَّن البحث من مقدمة: تناولت أهمية الدراسة وأهدافها و منهجها ، و تناول المبحث الأول :المقاربة النظرية لمصطلحات الدراسة (الحجاج و التداولية)و المبحث الثاني :مستويات التداوليَّة في الخطاب الحجاجيّ لعلماء الإعجاز، والثالث: الحجاج اللغوي ،(الروابط و العوامل الحجاجيَّة)،والرابع :الحجاج البلاغي في (التركيب ، الصورة)، ثم الخامس : الحجاج العقلي (الاستدلال المنطقي، السببي ، بالتمثيل) ، و السادس : تقنيات أخرى للحجاج ، ثم خاتمة لأهم النتائج.

التمهيد:

يعد الخطاب في القرآن الكريم خطابًا حجاجيًّا يستهدف الإقناع والتأثير، وكان الاحتجاج أحد وجوه الإعجاز الذي أنزله الله تعالى ليقع الاهتداء به، و قد كان للمناهج البلاغية التي اتكأت عليها البحوث الإعجازية عند كلٍّ من الخطابيّ والرُّمَّانيّ والبَاقِلَّانيّ والقاضي عبدالجبَّار وعبد القاهر الـجُرْجَانيّ دور كبير في إظهار

أساليب العرب الجمالية؛ ممَّا أسهم في إعادة قراءة الخطاب القرآني المعجز الذي لم ينفك اتصاله بالبلاغة العربية المتجددة على مر العصور اتصالًا حيًّا يرفدها بمعالم إبداعها اللُّغَوِيّ والبياني. وسنحاول استكناه ذلك الخطاب في إطار الاحتجاج لإعجاز النص القرآني بالاستناد إلى العلوم اللُّغَوِيّة الحديثة، والمناهج النقدية كالتداولية والأسلوبية ونظريات الحجاج.

سلكنا في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي لرصد الظواهر والتقنيات الحجاجية في خطاب المدونة الإعجازية، والمنهج الوصفي لاستجلاء معالمها الكامنة وراء حجاجهم، والمنهج التداولي بوصفه أنجع أداة إجرائية تظهر أوجه استعمال الحجاج في الخطاب، وتكشف جوانب المقام، وتظهر الوظيفة الحجاجية للأفعال الكلامية التي حواها خطابهم.

والمحاور التي تشتغل عليها هذه الدراسة هي: الكشف عن علاقة المدونة الإعجازية بالحجاج كمحور ترتكز عليه؛ لنجد أنها في مجملها إجابة وشرح لرأي كل عالم منهم في قضية التساؤل حول مكمن الإعجاز في النص القرآني الكريم التي دار حولها كلامهم، وفاضت بالحديث عنها مؤلفاتهم وسبرت أغوارها؛ ليخلصوا جميعًا إلى أن أعظم أوجه إعجاز القرآن الكريم يكمن في نظمه وإعجازه البياني. وكان لا بد أن نقف عند كل مؤلف على حدة لنتلمَّس عناصر الحجاج، ونستجلي ما أمكن من تقنياته وأساليبه على وَفْقِ مستويات الدراسة التداولية .

مدونة الدراسة:

لقد أخذت هذه الدراسة على عاتقها تحديد مؤلفات الإعجاز القرآني لخمسة من العلماء الأفذاذ في حقبة زمنية محددة ما بين القرنين الرابع والخامس الهجريَّيْنِ، أي ما بين العامين (٣٨٦هـ - ٤٧١هـ) .

وستركز الدراسة على مؤلفات بعينها كان القصد منها إثبات إعجاز القرآن الكريم البياني واللُّغَوِيّ:

١/ رسالة الرُّمَّانيّ [١](النكت في إعجاز القرآن).

٢/ رسالة الخطابيّ [٢] (بيان إعجاز القرآن).

٣/ كتاب البَاقِلَّانيّ [٣] (إعجاز القرآن).

---

[١]) الرماني هو هو أبو الحسن بن عيسى بن علي بن عبدالله الرماني، ويعرف بالأخشيد، وبالوراق، ولكنه بالرماني اشتهر. نحويٌّ، ومتكلم. وكان إمامًا في علم العربية، علاَّمة في الأدب من طبقة أبي علي الفارسي، وأبي سعيد السيرافي، برع في علوم كثيرة من الفقه والقرآن والنحو واللغة. والرماني من كبار علماء المعتزلة. وكان ممن أخذوا بحظ وافر في دراسة المنطق والتعمق فيه، وعيب بذلك. وولد في بغداد سنة ٢٩٦هـ. توفي في ليلة الأحد الحادية عشرة من جمادى الأولى سنة ٣٨٤هـ، وكان ذلك ببغداد مسقط رأسه ودفن بالشونيزية. (١) ينظر ترجمة الرماني: أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: هيثم الطعيمي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٤م، (١٠٨/١-١٢٨)، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، معجم الأدباء، ط١، بيروت ، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/١٩٩١م، (٧٤/١٤) ،أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد، د.ط، بيروت ، دار الكتب العلمية، د.ت، ١٦/١٢، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد أبن خلكان ،وفيات الأعيان و أنباء الزمان ، ط٥، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر ، ٢٠٠٥م، (٤٧١/١).

[٢]) الخطابي : ، أبو سليمان، حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي، صاحب التصانيف. ولد سنة بعض غرة وثلاثمائة في مدينة بست من بلاد كابل، مؤلفاته: إصلاح غلط المحدثين، إعلام السنن، شرح أسماء الله الحسنى، غريب الحديث، معالج السنن في شرح سنن أبي داود، معرفة السنن والآثار، كتاب الجهاد، كتاب العزلة، كتاب النجاح، رسالة له إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل، توفي الخطابي ببكت في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة. ينظر: ترجمته: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤط ، محمد نعيم العرق سوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٣هـ، (٢٣/١٢-٢٨)، إنباه الرواة (١٢٥/١)، معجم الأدباء (٢٤٦/٤)، شذرات الذهب (١٥٠/٣). السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ،تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، د.ت، ص٢٣٩ ، الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت (١٠/٨) .

[٣]) الباقلاني : هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر. وُلد في الربع الثاني من القرن الرابع الهجري و مات يوم السبت لتسع بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة للهجرة، فقد ظل يقوم بالتدريس والإملاء إلى آخر عمره. كانت حياة الباقلاني تدور في فلكين هما: التدريس، والتأليف . له خمسة وخمسين كتاباً في مختلف فنون الكلام والفقه، والرد على المخالفين ومنها: كتاب التمهيد،و الانتصار. ينظر: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: أحمد عبد الوهاب فتيح ، دار الحديث، القاهرة، د.ط، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، (١٤٤/٢). عبدالرؤوف مخلوف، الباقلاني وكتابه، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٧١-١٤٤.
،الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام، دار العلم ، بيروت ، ط ١٥، (٩٠٩/٣).

٤/ الجزء السادس عشر من موسوعة (المغني في أبواب التوحيد والعدل) للقاضي عبدالجبَّار[١] وهو بعنوان: (إعجاز القرآن).
٥/ الرسالة الشافية وكتاب (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الـجُرْجَانيّ[٢].

المبحث الأول: المقاربة النظرية للحجاج

أ- الدلالة اللُّغَوِيّة والاصطلاحية للحِجاج:

تناولت معظم المعجمات العربية مادة (حَجَجَ)، فجاء في لسان العرب لابن منظور، يقال: حَاجَجْتُه، أحَاجّه حِجَاجًا حتى حَجَجْتُه: أي غلبته بالحُجَجِ، والحَجُّ: القَصْدُ، وحَجَّ إلينا فلانٌ، أي قدم ،و التَّحَاج: التخاصم، والحُجَّة: الدليل والبرهان(٣).

ولا يخلو أيُّ نصٍ أو خطاب منها، حيث نجدها في التواصل العادي والنوعي، كما نجدها في الحجاج والجدل، وهي تصطبغ عادة بنوع الخطاب الذي تأتي فيه، فإن كان لُغَوِيًّا كانت الحجة لُغَوِيَّة، وإن كان الخطاب بلاغيًّا كانت الحجة لُغَوِيَّة بلاغية، فكل حجاج يستمد معناه وحدوده ووظائفه من مرجعية خطابية محددة، ومن خصوصية الحقل التواصلي الذي يكتنفه، فنجد حجاجًا خطابيًّا لسانيًّا، وآخر بلاغيًّا، وآخر قضائيًّا، وغيره سياسيًّا أو فلسفيًّا(٤)، وهذا التنوع جعل مفهوم الحجاج من المفاهيم المثيرة للالتباس التي يصعب الإحاطة بها.

ومن التعريفات التي نظرت إلى الحجاج بوصفه نمطًا من أنماط الخطاب أنَّه: "كل منطوق موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"(٥).

وأنَّه "طريقة لاستخدام التحليل العقلي والدعاوي المنطقية، وغرضها حل المنازعات والصراعات، واتخاذ قرارات محكمة، والتأثير في وجهات النظر والسلوك "(٦). وعرَّف بيرلمان في كتابه (مصنف في

---

[١]) القاضي عبد الجبار: أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبدا المعتزلي الرازي الهمذاني الأسد أبادي، ولد سنة ٣٥٩ هـ- وتوفي في ٤١٥هـ، يلقبه المعتزلة بقاضي القضاة، بلغت كتبه ومؤلفاته السبعين كتاباً ومؤلفاً في الثقافات المتنوعة ضاع أكثرها، وهي في الحديث، والسيرة والمواعظ، وأصول الفقه، والجدل، والتراجم، وعلم الكلام، وأصول الدين، والتفسير، وعلوم القرآن . ينظر: عبد الكريم عثمان، قاضي القضاة عبد الجبار، دار العربية للطباعة و النشر ، د.ط ، د.ت، ص٥٨ -٧٢.
(١) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، طبقات المفسرين، ط١، تحقيق: علي محمد، القاهرة – مكتبة وهبة، ١٣٩٦هـ، ص ٥٩- ٦٧.

[٢]) الجرجاني : هو عبد القاهر، الأشعري، النحو الشافعي، كنيته: أبو بكر، ولد في مطلع القرن الخامس للهجرة في جرجان،درس الجرجاني علوم الدين والعربية، وقد هيأ الله له علماً من أعلام النحو هو أبو الحسين محمد بن الحسين بن محمد بن عبدالوارث الفارسي النحوي ابن أخت أبي علي الفارسي.
وقد نقل عن القاضي الجرجاني في كتابيه: الدلائل، والأسرار، ورجح آراءه، توفي في جرجان سنة إحدى وسبعين وأربعمائة للهجرة، وقيل سنة أربع وسبعين وأربعمائة. ينظر: سير أعلام النبلاء، (٤٣٣/١٨)، تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (١٤٩/٥).
(٢) أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص١٢.
(٢) ينظر: نزهة الألباء ص ٢٤٨، فوات الوفيات، (٦١٢/١)، أنباه الرواة (١٨٨/٢)، طبقات الشافعية (١٤٩/٥)، بغية الوعاة (١٠٦/٢)، شذرات الذهب (٣٤٠/٣).

(٣) محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري ، لسان العرب، دار صادر، بيروت،ط٣، ١٤١٤هـ، ٢٢٦/٢ ،مادة (حجج) .

(٤) ينظر:الحبيب أعراب ،الحجاج والاستدلال الحجاجي (مقال) ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته،، دراسات نظرية و تطبيقية في البلاغة الجديدة ، إعداد و تقديم :حافظ إسماعيلي علوي ،عالم الكتب الحديث ،إربد الأردن،ط١ ٢٠١٠م ٣٣/٣.

(٥) طه عبدالرحمن، اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠١٢م ص ٢٢٦.

(٦) النص الحجاجي العربي (مقال) ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ٤/٤.

(٥) محمد سالم الطلبة ،الحجاج في البلاغة المعاصرة ،، دار الكتاب الحديثة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٨م،ص١٠٧

(٦) ينظر: آمال يوسف المغامسي، الحجاج في الحديث النبوي، ، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ط١، ٢٠١٦م. ص٢٤ وما بعدها

الحجاج) الحجاج انطلاقًا من موضوعه الذي هو " درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالخطاب إلى التسليم بما يطرح عليه من أطروحات، أو أن تزيد من درجة ذلك التسليم" (٥)

ولا تكاد تخلو كتب التراث الإسلامي من تداول مصطلح (حِجَاج)، أو (الاحتجاج)، أو (المحاجة) في عدة مجالات، وبخاصة في المسائل ذات الطابع الفكري والفلسفي التي كثيرًا ما يعتريها الخلاف في وجهات النظر، فهو مستعمل في علوم النحو واللغة والحديث والفقه والأصول وعلم الكلام. وقد استعملت مصطلحات مقاربة لمعنى الحجاج (الجدل، والمناظرة)، (البرهان)، (الإقناع)(٦).

ويمكن أن نستنتج أن التطور الذي عرفته البحوث الحجاجية نابع من استلهام الموروث البلاغي والفلسفي عند الغربيين من خلال إحياء التراث الفلسفي اليوناني، وعند العرب من خلال إحياء التراث البلاغي والكلامي العربيين .

وقد يعود ذلك إلى أن الخطاب القرآني نفسه يدعو إلى إعمال العقل والإدراك والشعور، كما أنه بنى لغته على مختلف أنواع الحجج والبراهين العقلية.

ومما يدل على أن الخطاب القرآني خطاب حِجَاجِيٌّ أنه نعت مناوئيه بشدة الجدل واللَّدد، فقال تعالى: (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ): الزخرف ٥٨.

المبحث الثاني:

الخطاب الحجاجي التداولي في مؤلفات علماء الإعجاز

لقد كان للبحوث التداولية دور كبير في تطوير بلاغة الحجاج في الربع الأخير من القرن العشرين عندما انفتحت نظرية الحجاج على المعارف اللسانية والبلاغية والاجتماعية وغيرها، وهي كلها مباحث تصب في الحقل التداولي(١).

و بما أن الحجاج يعدُّ أحد أهم أركان التداولية، فإن دراسة الخطاب الحجاجي عند علماء الإعجاز دراسة تداولية له ما يسوّغه؛ إذ إن التداولية تقوم على نظرية الأفعال الكلامية، التي لها وظيفة حجاجية عندما تستهدف توجيه المتلقي نحو نتيجة معينة أو صرفه عنها والتأثير فيه، كما هو الحال في خطاب علماء الإعجاز، وأن المتأمل في البنية المفاهيمية للتداولية أو البلاغة الجديدة -إن صح التعبير- يجد أنها لم تخرج عن نطاق مرتكزات البلاغة القديمة، وهي: (المتكلم، المخاطب، الخطاب، السياق، والموقف الخارجي). وسيتضح ذلك أكثر من خلال الدراسة بمشيئة الله.

و قبل البحث في المقاصد التي بنى عليها علماء الإعجاز خطابهم كأحد مفاهيم التداولية ؛كان لا بد من البحث في الخلفية الاجتماعية والدينية، التي صبغت عصرهم، أي بين القرنين الرابع والخامس الهجريين، فقد كان عصر جدل ومناظرة قائمة على الدفاع عن قضية الإعجاز القرآني، وقد شملت المناظرة مختلف فروع المعرفة آنذاك البيانية واللُّغَوِيّة، غذَّاها تطور علم الكلام والاهتمام بأصول الفقه وظهور المذاهب الفقهية. وكان الاهتمام بقضية نظم القرآن الكريم مثار اهتمام المعنيّين بإعجاز القرآن الكريم على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم، ولم تسلم نظرية النظم عند كل منهم من التأثر بالاتجاه العَقَدي؛ حيث وُظِّفَتْ لخدمة آرائهم الكلامية.

وقد استقلت الدراسات اللُّغَوِيّة في القرن الرابع عن الأثر القرآني، فظهرت محاولات خاصة بإدراك حقيقة الإعجاز في نظم القرآن ومعرفة أسرار أسلوبه، وبنَوْا منهجهم على خلاصة دراسات علماء القرن

(١) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص ١٧٥.

الثالث للوصول إلى الإعجاز عن طريق علوم البلاغة[١].

وبدأ التأصيل للدرس الإعجازي يستقل تدريجيًّا عن الدراسات اللُّغَوِيّة والنَّحْوية والنقدية، بَلْهَ الكلامية والفلسفية بدون أن تنفصل عنها نهائيًّا في أنها اعتمدت مقدماتها وأدواتها في رصد الظاهرة الإعجازية. وبما أن علماء الإعجاز الذين تتناولهم الدراسة قد درسوا علم الكلام، سواء الخطابيّ أو المعتزليَّان[٢] الرُّمَّانيّ والقاضي عبدالجبار، والأشعريَّان[٣] البَاقِلَّانيّ والإمام عبدالقاهر؛ فإنَّ خطابهم يمتاز بالطابع السجالي الحواري الحجاجي.

لذا كان الاطلاع على المقصدية باعتبارهم متكلمين أمرًا مرتبطًا بمعرفة أحوال النص الموضوعية ووضعية المتكلم ومكانته ووضعية المخاطبين، "ففهم الخلفيات المعرفية والأحوال التي شكلت النص أو الكلام مفاتيح مهمّة لإدراك المعاني التي يكتنفها النص"[٤].

يتَّضح من خلال هذا القول ضرورة ربط الخطاب الموجه بسياق إنتاجه، فقد حملت مدونة علماء الإعجاز مقاصد معلنة، وتركت أخرى مضمرة تنتظر من ينفض الحجب عنها.

كما أكَّد علماء الإعجاز في إطار حديثهم عن الخصائص المميزة للكلام المعجز "أن النظم القرآني خطابٌ ربانيٌّ ذو معانٍ مقصودة من المتكلم به -عز وجل-، وهي معانٍ ثابتة لا تتغير في أي زمان ومكان، ولكن الناس يتفاوتون في إدراكها وفهمها على حَسَبِ مداركهم وأدواتهم"[٥]، وعنوا بالحديث عن المقصدية وكيفية بناء الكلام البليغ بشكل تأتلف فيه الألفاظ وتتجاور وتتسق؛ لتؤدي دورها في الإقناع والتأثير.

لقد قصد علماء الإعجاز القرآني من مؤلفاتهم حول إعجاز النص القرآني الكريم بيان أوجه إعجازه ومواطن بلاغة نظمه ما أوتوا إلى ذلك سبيلًا، وبما امتلكوا من أدوات الفهم والعلم، وهم في ذلك يؤمنون بربانيته، وخصوصيته، مُنَزِّهينه عن أي نقد لُغَوِيّ أو بلاغي، فقد قال الله، عز وجل، عنه: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ**﴾ فصلت:

---

(١) ينظر: محمد زغلول سلام ، أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع ،مصر مكتبة الشباب ،ط١ ،١٩٥٢م ، ص ٢٢٩ – ٢٣٢.

[٢] **المعتزلة:** فرقة إسلامية تنتسب إلى واصل بن عطاء الغزال، تميَّزت بتقديم العقل على النقل، وبالأصول الخمسة التي تعتبر قاسمًا مشتركًا بين جميع فرقها، من أسمائها: القدرية، والوعيدية، والعدلية، سُمُّوا معتزلة لاعتزال مؤسسها مجلس الحسن البصري بعد خلافه معه حول حكم الفاسق. مؤسسها: واصل بن عطاء الغزال، قال الإمام الذهبي في ترجمته في السير:" البليغ الأفوه أبو حذيفة المخزومي مولاهم البصري الغزال.. مولده سنة ثمانين بالمدينة، طرده الحسن عن مجلسه لما قال الفاسق: لا مؤمن ولا كافر، فانضم إليه عمرو، واعتزلا حلقة الحسن، فسُمُّوا المعتزلة. ينظر: الشهرستاني، الملل والنحل (٤٢/١-٥٢)، البغدادي، الفرق بين الفرق، ص١٢٠، القاضـي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ص٢٨.
بدأت المعتزلة بفكرة أو بعقيدة واحدة، ثم تطور خلافها فيما بعد، ولم يقف عند حدود تلك المسألة، بل تجاوزها ليشكل منظومة من العقائد والأفكار، والتي في مقدمتها الأصول الخمسة الشهيرة التي لا يعد معتزليًّا من لم يقل بها، والأصول الخمسة: التوحيد، العدل، المنزلة بين المنزلتين، الوعد والوعيد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ينظر: القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ص٢٨، وص١٢٣.الشهرستاني، الملل والنحل، (٤٦/١).

[٣] **الأشاعرة**: فرقة تنتسب إلى أبي الحسن الأشعري، رحمه الله ، وقد مر أبو الحسن الأشعري بمراحل، كان في الأولى منها معتزليًّا ، وبقي عليها نحوًا من أربعين سنة، ثم رجع عن الاعتزال إلى رأي عبد الله بن سعيد بن كُلاّب، وتأثر به، وهي المرحلة الثانية، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل من أشد الناس على عبد الله بن سعيد بن كلاب، وعلى أصحابه، مثل: الحارث، وغيره ، كما أخبر الإمام ابن خزيمة عنه. ينظر: سير أعلام النبلاء (٣٨٠/١٤)، وابن تيمية، درء التعارض (٦/٢).
واختلف العلماء في أنه: هل رجع الأشعري عن قول ابن كلاب إلى مرحلة ثالثة فوافق أهل السنة والجماعة موافقة تامة, أم بقي على ذلك ولم يرجع؟ فطائفة رأت أنه رجع إلى قول أهل السنة، قال ذلك الحافظ ابن كثير، ومن المعاصرين الشيخ حافظ الحكمي، واستدلوا على ذلك بكلامه في كتاب الإبانة – وهو آخر كتبه – حيث قال: " قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب الله ربنا، عز، وجل، وبسنة نبينا محمد -ρ- وما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، نضَّر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته قائلون، ٠٠٠") الإبانة ، ص٢٠.
والقول الثاني: أن الأشعري لم يرجع عن مذهب الكلابية رجوعًا كاملاً، وإنما اقترب من أهل السنة والجماعة في كثير من المسائل.
ورجّح هذا القول ابن تيمية، وابن القيم، وغيرهما، وإن كان الأشعري في " الإبانة " قد قرب كثيرًا من مذهب أهل السنة، إلا أنه قد بقيت عليه بقايا من مذهب ابن كلاب. ينظر: مجموع الفتاوى، /٢٢٨ . موقف ابن تيمية من الأشاعرة، عبد الرحمن المحمود (٣٩٠/١).

(٤) محمد مفتاح، المقصد والاستراتيجية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة البحوث والمناظرات، الدار البيضاء، ١٩٩٣م، ص٥٨.

(٥) يوسف العليوي ،الأسس المنهجية لدراسة البلاغة القرآنية، دار كنوز إشبيليا ، الرياض، ١٤٣٩هـ ،ص٢٥٣.

٤١: ٤٢، فكان بحثهم في أسرار إعجازه ودفاعهم عنه أمام الطاعنين والمشككين في بلاغته نابعًا من إيمان عميق بكماله المطلق لغةً ونظمًا.

والناظر في مؤلفاتهم يلحظ تأثرهم بالسياق الاجتماعي والثقافي الذي تنطلق منه مقصدية علماء الإعجاز، والزاخر بالآراء الكلامية المتباينة التي أسست للخطاب البلاغي والأدبي لديهم باعتبار أن البحث في إعجاز القرآن كان حقلًا معرفيًّا وحَّد مقاصدهم أحيانًا كثيرة.

وقد جاءت المقصدية في مؤلفات علماء الإعجاز ظاهرة في خطابهم ومباشرة تارة، ومتوارية تارة أخرى. ويظهر توظيفهم لثلاثة أنماط أساسية من القصدية هي: الغرض التعليمي، والغرض الحجاجي، والغرض الأخلاقي.

ويمكن القول بأن خدمة المعتقد الديني شكَّلت مقصدية علماء الإعجاز في نظرتهم لبلاغة النص القرآني، وأنتجت ثنائية اللفظ والمعنى والحقيقة والمجاز التي تناولتها كتب النقد بالدراسة والتحليل بعدهم.

و عند الحديث عن مستويات التداولية في مدونة الدراسة فسنبدأ بأهم الأفعال الكلامية لإظهار الطاقة الحجاجية التي تحملها ضمن خطابهم الإعجازي.

أ- على مستوى الفعل الكلامي:

تنبثق نظرية الحجاج أساسًا من داخل نظرية أفعال الكلام، والتي لها أساس في البلاغة العربية، كما يرى مسعود صحراوي أن ظاهرة (الأفعال الكلامية) في تراثنا العربي تندرج ضمن مباحث علم المعاني، وتحديدًا ضمن الظاهرة الأسلوبية المعنونة بـ الخبر والإنشاء ، وما يتعلق بها من قضايا وتطبيقات، وتعد من الجانب المعرفي العام مكافئة لمفهوم (الأفعال الكلامية) عند المعاصرين(١)، ويعدُّ ديكرو أبرز من تناول موضوع الأفعال الكلامية؛ حيث قام بتطوير أفكار أوستين وآرائه، واقترح إضافة فعلين لُغَويين، هما: فعل الاقتضاء، وفعل الحجاج(٢)، حيث يتمثل الحجاج عند ديكرو في إنجاز تسلسلات استنتاجيه داخل الخطاب، أو بعبارة أخرى يتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها بمنزلة الحجج اللُّغَوِيّة، وبعضها الآخر في مقام النتائج التي تستنتج منها.

وسنعرض لأهم الأفعال الكلامية التي يمكن استقراؤها في مدونة الدراسة.

١ -الاستفهام:

نجد كلًا من (أوستين وسيرل) قد أدرجاه ضمن الأفعال الإنجازية كما ميَّز (ديكرو وأنسكومبر) نوعًا من الاستفهام وأطلقا عليه الاستفهام الحجاجي، وهو "نمط من الاستفهام يستلزم تأويل القول المراد تحليله، انطلاقًا من قيمته الحجاجية"(٣). بمعنى أن الاستفهام يحمل افتراضات ضمنية غير مصرح بها تجعله يحمل استفهامًا حجاجيًّا.

ومن أنواع الاستفهام الحجاجي -الذي كان حاضرًا في مدونة علماء الإعجاز- ما جاء فيه الحجاج باستعمال الاستفهام الإنكاري، الذي يراد به إنكار الأمر ونفيه لحمل المخاطب على الاقتناع بأمر قد يشك فيه.

ومنه قول **الخطابيّ** في بيانه لعجز العرب أن يأتوا بمثل القرآن: "فكيف كان يجوز على قول العرب ومجرى

(١) ينظر: مسعود صحراوي ، التداولية عند العلماء العرب ، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار التنوير، ط٢، ٢٠٠٨م،ص٤٩

(٢) ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، مؤسسة الرحاب، بيروت، د. ط، ٢٠٠٩م، ص ٢٠.

(٣) ينظر: أبو بكر العزاوي، الخطاب و الحجاج ،مؤسسة الرحاب الحديثة ،بيروت،ط١،٢٠١٠م ،ص٥٧- ٥٨

العادة مع وقوع الحجة ولزوم الضرورة أن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه، وأن يضربوا عنه صفحًا ؟"(١).
فالفعل الإنجازي الذي يتضمنه هذا الاستفهام هو نفي أن العرب لم يحاولوا مضاهاة القرآن أو محاكاة نظمه الفريد إلا أنهم وقعوا في الحيرة والعجز عن ذلك ! وهو الأمر الذي دعاهم للتفكير في أسرار إعجاز نظمه، وعظمة ما تضمنه من ترغيب وترهيب، وأحكام وتشريعات بصياغة محكمة لا يقوى عليها بشر!

ومن الاستفهام التقريري المتضمن لحمل المخاطب للثناء والمدح وترغيبه في حسن الشيء واقتناعه به ما نجده عند **الرُّمَّانيّ** في بلاغة تشبيهات القرآن الكريم، وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه، فقال: "فكيف إذا تضمَّن مع ذلك حسن النظم، وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة وصحة الدلالة؟(٢)، فيكون الاستفهام قد قوَّى الحجة وأكَّد خصائص النظم القرآني المعجز من حيث اللفظ أو الدلالة، فالاستفهام هنا قد تضمَّن إقرارًا بتلك الخصائص والصفات التي هي أحد أسرار إعجازه. ومن الاستفهام الحجاجي أيضًا ما أورده **البَاقِلَّانيّ** في ردّه على من زعم تحريف القرآن الكريم وعدم حفظه، فقال: "فكيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة والآراء المتباينة على كثرة أعدادهم واختلاف بلادهم، وتفاوت أغراضهم أن يجتمعوا على التغيير والتبديل والكتمان؟!"(٣).

فكان الاستفهام هنا بمنزلة الحجة نفسها، وبرز على أنه فعل حجاجي مضمر على وَفْق ما يقتضيه السياق الذي يؤدي بالمخاطب إلى التسليم مرة بعد الأخرى، ويؤدي إلى تغيير معتقداته الباطلة تدريجيًّا فنلاحظ أن البَاقِلَّانيّ بذلك الاستفهام ينفي التبديل والتحريف لكلام القرآن الذي يستلزم إثبات حفظه الإلهي، والذي هو أحد أوجه إعجازه، وهو سلامته على مر العصور والأزمان من التبديل والتغيير مع كثرة الطاعنين فيه، والمشككين في إعجازه.

وقد يستعمل الاستفهام الحجاجي مدخلًا لفصل جديد أو للرد على بعض الشبه والمزاعم وتفعيل الحوار مع المخاطب، كقول **البَاقِلَّانيّ:**

"فكيف يعرف البليغ الذي وصفتموه إعجاز القرآن ؟ وما الوجه الذي يتطرق به إليه والمنهاج الذي يسلكه حتى يقف به على جليَّة الأمر فيه؟ "(٤).

وانظر إلى جوابه، قيل: "هذا سبيله أن يفرد له فصل"(٥).

أمَّا **القاضي عبدالجبار** فنلحظ اعتماده على الاستفهام الحجاجي في معظم القضايا التي ناقشها في الفصل (السادس عشر) من كتابه المغني، التي هي في إعجاز القرآن، بل في آثاره ومؤلفاته كلها. ففي حديثه عن الوجه الذي يصح عليه اختصاص بعض القادرين بالكلام الفصيح دون غيره يقول ردًّا على من يزعم أنه لا دليل على أن القرآن قد بلغ في الفصاحة نهاية ما يمكن من الرتب في ذلك فيجب مثله فيما جرت العادة به من كلام الفصحاء، وإذا لم تعلم نهاية ما يمكنهم على هذا القول، ثم يأتي الاستفهام الحجاجي: "فمن أين أن القرآن قد تجاوز الحد الذي جرت العادة بمثله ؟"(٦).

---

(١) بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، مصر. دار المعارف ،ط٨، ٢٠١٥م ص٢٢.

(٢) النكت في إعجاز القرآن،.ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، مصر. دار المعارف ،ط٨، ٢٠١٥م ص ٨٢.

(٣)الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب ،إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف ،مصر، ط٣. د. ت ، ص ١٩.

(٤) إعجاز القرآن، ص ٤١.

(٥) السابق، الصفحة نفسها.

(٦) الأسد آبازي، القاضي عبد الجبار بن أحمد، إعجاز القرآن (الجزء السادس عشر من المغني) قوم نصه: أمين الخولي، مصر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ط، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م، ١٦/ ٢١٦.

ويأتي الجواب يدحض به ذلك الزعم بطريقة منطقية كلامية تقنع وتلجم المخاطب، الذي في نفسه شك أو شبهة بأن عدم العلم بنهاية الرتبة في الفصاحة والبيان مما لم تجرِ العادة بمثله يمكن أن يكون دليلًا مفقودًا على تجاوز القرآن ما جرت العادة بمثله في كلام الفصحاء والبلغاء.(١) وأن عدم معرفتهم بأسباب إعجازه مستلزم لجهلهم بنهاية الحد في بلاغة الكلام عمومًا.

وقد فصَّل **الـجُرْجَانيّ** في هذه القضية متأثرًا بكلام القاضي عبدالجبار قبله. وعلى طريقة المتكلمين في حجاجهم وإثبات رأيهم نجد الـجُرْجَانيّ يسوق الاستفهامات الحجاجية؛ ليثبت بها رأيه في النظم فعليه مدار الكلام والحجة، وبه تتوالى في فصول كتابه الدلائل. يقول الـجُرْجَانيّ في مدخل كتابه الدلائل:

"فما هذا الذي تجدَّد بالقرآن من عظيم المزية وباهر الفضل والعجيب من الرصف، حتى أعجز الخلق قاطبة، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القُوَى والقُدَر...؟ "(٢)

ثم يتبع ذلك الاستفهام الحجاجي باستفهام تقريعي آخر "أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله، ونرده عن ضلاله، وأن نَطِبَّ لدائه، ونزيل الفساد عن رائه ؟"(٣).

فالاستفهام هنا أداة حجاجية تفنن الـجُرْجَانيّ في استعمالها، فهو استفهام بغرض التمجيد والتعظيم للكتاب العظيم، وتبكيت المعارضين واستفهام لاستدعاء الأفكار واستحضار المعاني العقلية وتوليد النقاش الذي تعالج من خلاله المفاهيم، وتثبت الآراء بعد أن يتشوق المخاطب للجواب ويتأهب للفهم والاستيعاب.

٢- الأمر والنهي:

وهما من الأساليب الإنشائية الطلبية وأمَّا بلغة التداوليين، فهما فعلان كلاميان يحمل كل منهما قوة إنجازية تحددها إرادة المتكلم وقصده، وهي إرادة متعلقة بطلب إيقاع المأمور به وعدم إيقاع المنهي عنه(٤).

والأسلوب الإنشائي يضطلع بدور مهم في العملية الحجاجية من خلال ما توفره هذه الأساليب من إثارة، وما تستدعيه من عواطف ومشاعر تحمل المخاطب على التأثر، ومن ثمَّ اتخاذ موقف من الخطاب يريده المتكلم ويقصد إليه.

ومن أكثر الأفعال الكلامية دورانًا في مدونة علماء الإعجاز فعل الأمر الإنجازي الذي يستهدف إعلام المخاطب أمرًا يستلزم منه الإذعان والمعرفة والفهم، وهو الفعل (اعلم).

يقول **الخطابيّ** بعد بيانه لما يقوم به الكلام من لفظٍ حامل، ومعنًى به قائم، ورباطٍ لهما ناظم، وأنها في القرآن جاءت في غاية الشرف والفضيلة، ليلخص الأمر الأهم الذي يريد إثباته للمخاطب بفعل حجاجي إنجازي، وهو" فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزًا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعاني.."(٥).

فتضافر الفعل الكلامي(اعلم) مع السياق للوصول للنتيجة التي يقصدها الخطابيّ، تعاضده روابط حجاجيَّة تؤكده، وهي (إنما) ووصف حجاجي للقرآن الكريم يثبت من خلاله إعجازه وتقدمه على سائر الكلام لفظًا ومعنًى. فالإثبات والنفي هما المعنيان اللذان تتمحور عليهما سائر معاني النحو، وهما المولدان الأساسيان للفائدة في البنية التركيبية الدلالية الدنيا المجردة، وذلك باعتبارهما يمثلان حكم المتكلم ويجسدان

(١) ينظر: السابق، الصفحة نفسها.

(٢) الجرجاني ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، مصر،.١٩٩م ، ص ٩.

(٣) السابق، الصفحة نفسها.

(٤) ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص ١٥٠.

(٥) بيان إعجاز القرآن، ص ٢٧.

اعتقاده[١]. ومن ذلك ما نجده عند الخطابيّ في ربطه الإثبات بقوله :"إنَّما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظٌ حامل، ومعنًى به قائم، ورباطٌ لهما ناظم"[٢]، ثم يقرنه بالنفي بقوله: "و إذا تأمَّلت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشد تلاؤمًا وتشاكلًا من نظمه "[٣].

أمَّا **عبدالقاهر الـجُرْجَانيّ** فتكثر عنده أفعال الأمر والنهي استنادًا إلى طبيعة خطابه الحجاجي الذي يحاور مخاطبًا حاضرًا في كل مسألة يعرضها، فدلالة أفعال الكلام الإنشائية تخرج عن معانيها الأصلية لغرض التأثير في المخاطب؛ فهي الآليات الاستراتيجية في الإقناع التي تقوم على حمل المخاطب على استنتاج معانٍ تدفعه إلى الاقتناع دفعًا، وتحثُّه على الإذعان والتسليم.

فبعد أن أورد أبيات البحتري كشاهد على حسن النظم يقول: " فعُد فانظر في السبب واستقصِ في النظر" ثم يأتيه بنتيجة إعادة النظر والاستقصاء بقوله: " فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنَّه قدَّم وأخَّر، وعرَّف ونكَّر، وحذف وأضمر، وأعاد وكرَّر، وتوخَّى على الجملة وجهًا من الوجوه التي يقتضيها علم النحو،... "[٤].

ففعل الأمر الإنجازي الذي تعددَّت صيغه هنا (عد، انظر، استقصِ) هي لغرض الحث وإثارة المخاطب ليقيم الحجة بنفسه على نفسه ليتحقق الغرض التداولي من الخاطب، ويذكر له الجواب مؤكدًا له الأسباب، وهي تنوع أساليب الخطاب من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وذكر وحذف، وإضمار وتكرار بما يقتضيه علم المعاني من حصول البلاغة وإصابة المعنى الذي يطلبه السياق.

و**القاضي عبدالجبار** لا يبتعد كثيرًا في استعماله لفعل الأمر الإنجازي (اعلم) من طريقة الـجُرْجَانيّ، ومن ذلك قوله: " اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة "[٥]. وهو الممهّد لعبد القاهر في نظريته للنظم، حيث تبلّورت بشكلها الواضح على يديه، فالقاضي عبدالجبَّار يثبت شرط الفصاحة وهو طريقة نظم الكلمات وتركيب الجمل واتساقها على طريقة مخصوصة تناسب أداء المعنى المراد، وتحسن في التعبير عنه. فكان استهلاله بفعل الأمر (اعلم) جذبًا لانتباه المخاطب؛ لأن ما بعدها أمرٌ مهم، هو خلاصة نقاشٍ وحوارٍ كلامي؛ فكانت بمنزلة النتيجة التي خلص إليها مؤكَّدةً بعدة مؤكدات هي: (أن، القصر بالنفي والاستثناء، إنما)، وذلك ممَّا يقوي حجاجه؛ ليذعن المخاطب له كأنه نتيجةٌ قطعية لا تقبل الجدال.

كما نجد **البَاقِلَّانيّ** يستعمل فعل الأمر استعمالًا حجاجيا يؤثّر من خلاله في مخاطبه بما يقرره له من رأي وحجة. فقال:

" وبينَّا أن نظم القرآن يزيد في فصاحته على كل نظم، ويتقدَّم في بلاغته على كل قول بما يتضح به الأمر اتضاح الشمس، ويتبين به بيان الصبح، وقفت على جلية هذا الشأن، فانظر فيما نعرضه عليك، وتصوَّر بفهمك ما نصوره؛ ليقع لك موقع عظيم شأن القرآن، وتأمَّل ما نرتبه ينكشف لك الحق"[٦].فتأتي أفعال الأمر (انظر، تصوَّر، تأمَّل) لغرض الحث وإثارة المخاطب ليقيم الحجة بنفسه على نفسه في حوارية

(١) ينظر: خالد ميلاد، الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط١، ٢٠٠١م، ص ٢٠٥ -٢٠٦.

(٢) بيان إعجاز القرآن، ص ٢٧.

(٣) السابق، الصفحة نفسها.

(٤) دلائل الإعجاز، ص ٨٥.

(٥) المغني، ١٦/ ١٩٩.

(٦) إعجاز القرآن، ص ٢٣٧.

يصطنعها البَاقِلَّانيّ يقرر من خلالها أفكاره وآراءه حول بلاغة النظم القرآني.

وقد يكون انتماء كل من الخطابيّ والبَاقِلَّانيّ والـجُرْجَانيّ للمذهب الأشعري على تفاوت بينهم هو السبب في ظهور مبادئهم في دراساتهم؛ بحيث جعلوا مدار الكلام على الخبر (الأسلوب الخبري) من جهة ربطه بفعلي الإثبات أو النفي، فالإثبات والنفي هما المعنيان النحويان الأساسيان للجملة في شكلها الأساس المجرد.

كما يعدُّ المتكلم في مدونة علماء الإعجاز عنصرًا محوريًّا في عمل القول، بحيث لا يكون للكلام معنى دون نسبته إلى ذلك المتكلم باعتباره من يقوم بإنجاز فعل الإثبات وفعل النفي، وهي تتَّضح كأفعال كلامية ينطلق منها المتكلم؛ لينجز بها أغراضًا تتصل بالقصد وتسوق المخاطب إلى الإذعان والقَبُول.

ب- المستوى الحواري:

يعدُّ الحجاج في المقاربة التداولية خطابًا تواصليًّا موجهًا يرمي إلى التأثير في المتلقي وإقناعه، من خلال التفاعل معه ضمن موقف تواصلي محدد.

وتكمن أهمية المستوى الحواري في الحجاج -كما عند بيرلمان- في أنه دراسة لطبيعة العقول، ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها، ثم محاولة حيازة تآلفها الإيجابي والتحامها مع الطرح المقدم، وإلا كان الحجاج بلا غاية وبلا تأثير. والحوار قد يكون صريحًا عند اتخاذ مواقف علنية معينة، وقد يكون ضمنيًّا عندما يجرد المتكلم من نفسه محاججًا ومحاورًا خاصًّا يتناول معه هموم المخاطبين(١).

وهذا المحاور الضمني هو ما نجده في مدونة علماء الإعجاز، كما عند الخطابيّ والـجُرْجَانيّ، والبَاقِلَّانيّ، وعبدالجبار، حيث إشراك المخاطب في الحجاج عن طريق وضوح الأدلة، ومحاورة المخاطب ليذعن ويسلّم بصحتها.

وعند استقراء ذلك المستوى الحواري في مدونة علماء الإعجاز، نجد أن مبدأ الحوار هو أساس الحِجاج الذي أقام عليه **الخطابيّ** كلامه في بداية رسالته، محاور مخاطبًا مضمرًا لم يهتدِ إلى وجه الإعجاز في القرآن، فيحاوره عارضًا كل الاحتمالات، مستقرئًا كل الأوجه التي يحملها له السياق الزماني في عصره، والمقام الاجتماعي من صور متعددة لفرضيات يعلل بواسطتها الإعجاز القرآني.

ولسنا هنا بصدد عرض الآراء ورد الخطابيّ عليها بقدر ما يهمنا تحديد المستويات التي يتجلى فيها البعد التداولي للخطاب الحجاجي عند الإمام الخطابيّ.

فنلاحظ استعماله لأفعال الحوار:(قلت– ذهب قوم إلى– زعمت طائفة– زعم آخرون– قالوا– قلت – اعلم أن– أما قول القائل– فإن قيل– قال).

فهو حوار افتراضي في مجمله، تظهر فيه الصيغة الحجاجية بقوة في عرض القول أو الزعم ثم ردّه عليه؛ وتكمن قوته من عظم القضية المحورية التي ينافحون عنها ويدور حولها حجاجهم؛ وهي إثبات إعجاز النص القرآني، ونبوة النبي الأمي عليه الصلاة، والتسليم بصدق ما أنزل عليه. ومن ذلك ما يعرضه الخطابيّ إلى خطاب ما ترويه بعض كتب الأخبار من معارضة مسيلمة وغيره لأسلوب القرآن بأقوال زعموا أنها تساوي القرآن أسلوبًا وغرضًا، وفنَّد في رده على قضية المعارضة بتوسع في معنى المعارضة، وألحق بها فنونًا تتّصل بها، ودعمها بحججٍ وشواهد من أشعار العرب(٢).

كما يظهر المخاطب حاضرًا في خطاب كل من البَاقِلَّانيّ، والقاضي عبدالجبار، والـجُرْجَانيّ على وجه الخصوص؛ بل إنه يظهر لدى الـجُرْجَانيّ بكفاءة عالية يمتلك معها الذوق؛ ليميَّز ويحكم وذلك ممَّا يسمح له

(١) ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص ١٢١.

(٢) ينظر: بيان إعجاز القرآن، ص٣٧.

بالتفاعل مع سياق التخاطب، فهو مخاطب مشارك في عملية التواصل فلا يستقبل فقط ما يصله من خطاب، وإنَّما يشارك في بناء فهم مناسب للقول من خلال الآليات التي يسخرها في ذلك، وهما الاستدلال والتأويل. ولا يكاد المخاطب يظهر في رسالة **الرُّمَّانيّ**، فقد ركَّز في دراسته لقضية الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم على فنون البلاغة بطريقة تتناول الفن البلاغي بصورة مستقلة، ولا تلتفت كثيرًا إلى الملابسات السياقية التي ينتظم فيها، ويبدو أن هذه الطريقة في تحليل الفن البلاغي جعلت حجاجه يميل إلى التقرير، والأسلوب الخبري، ولا يلتفت كثيرًا إلى السياقات المختلفة، ويُكثر من التعريفات بأسلوب مباشر .

أمَّا **عبدالقاهر الـجُرْجَانيّ** فتعتمد الحوارية التداولية عنده على بناء معرفة، وكل معرفة تقوم على نظرية ومنهج واصطلاح، ولا تُؤَسَّس هذه المعرفة إلا على قراءة تكشف عن الخصائص، والآليات والعلاقات السياقية والإحالية المختلفة للظاهرة الإبداعية الكامنة في النص الأدبي. وقد بيَّن الـجُرْجَانيّ سبيل هذه القراءة بتوجيه تنبيه لمخاطبه بقوله: "اعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك في توخي المعاني... أن تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعًا واحدًا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه هنا في حال ما يضع بيساره هناك، ..."[١]. فالـجُرْجَانيّ من خلال التوجيه الحجاجي يستحث المتلقي على تأمّل وتدبّر ما يقرأ، ويشارك في استخلاص مواطن الجمال، فيدفعه إلى الاستدلال بنفسه على الدعوى التي أراد إثباتها وهذه الوسيلة أكثر إلزامًا للمخاطب لأنها تصل به إلى درجة الاقتناع، ويعيب أن يكون المتلقي مكتوف اليدين لا يعمل عقله وفكره فيما يقرأ، فلا يتفاعل معه استحسانًا أو ذمًّا، ويبين لهم الطريق إلى الفهم الأمثل للنصوص، فيقول: "حتى يسلكوا المسلك الذي سلكناه، ويفرغوا خواطرهم لتأمل ما استخرجناه"[٢]. ويعتمد الـجُرْجَانيّ على ما يصطلح عليه (بالحوار الشبيهي) ، ويختص هذا الحوار "بكون العارض فيه يتظاهر بإشراك غيره في طلب المعرفة وإنشائها، بينما هو في حقيقة الأمر آخذ بزمام توجيه المعروض عليه في كل مرحلة من مراحل الحوار الذي يحدد للمعروض عليه مسألة سبق أن تدبرها ويعين طريقًا لبحثها خبرها من قبل وينتهي إلى نتائج معلومة له "[٣].

و يرى د. رضوان الرقبي أن من الأدوات الحجاجية التي استثمرها عبدالقاهر في بناء نصه الحجاجي اعتماده على سلطتين لهما أثرهما الكبير على المخاطب، ولا يملك المعترض أمامهما إلا التسليم والإذعان، وهاتان السلطتان هما: سلطة الإجماع؛ وتتجلى في قول الـجُرْجَانيّ: "وهل تجد أحدًا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعنى جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟"[٤] وذلك أن صياغة العبارة التي افتتح بها دعواه بأسلوب الاستفهام بمعنى النفي هي حجة ضمنية تدفع بالمخاطب إلى استنتاج نتيجة مفادها: أن الكل مجمع على اعتبار النظم معيارًا للحكم على فصاحة اللفظة، والسلطة الثانية هي السلطة المرجعية الدينية، وذلك لاستشهاده بالآيات القرآنية التي لقيت عناية البلاغيين والمفسرين.[٥]

ونخلص من ذلك أن علماء الإعجاز قد اعتمدوا في خطابهم على المكونات الحجاجية ضمن الأفعال الكلامية مع مراعاة السياق؛ مما أسهم في إبراز خطاب الأدبية لديهم.

---

(١) دلائل الإعجاز، ص ٧٣.

(٢) السابق، ص ٤٥.

(٣) طه عبدالرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٤، ٢٠١٠م ،ص ٤١

[٤]) دلائل الإعجاز ،ص٣٠

(٥) ينظر: رضوان الرقبي، البلاغة والحجاج، بحث في تداولية الخطاب، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٨م، ص ٨٠-٨١

ج: السياق (المقام):

ارتبط الدرس البلاغي عند العرب قديمًا بمقولة لكل مقام مقال؛ وتعني أن كل قول ينجز على حَسَب السياق الذي يرد فيه، أما عن نوع المقام الذي يعلق القول وكيف يبنى القول باعتباره ملفوظًا ينجز في مقام تلفظي معين، فإنه يظهر تشكُّل القول من خلال الإسناد الذي تكمن أهميته بالنظر إلى قيمة المتكلم والمخاطب في القول، وتواصليته بين الطرفين، ولا تكتمل العملية التخاطبية إلا بحضور عناصرها: المتكلم، المخاطب، والخطاب مرهونا بالتفاعل الحاصل بين هذه الأطراف، وذلك بحسن استخدام اللغة وكيفية نجاح ذلك الاستخدام في السياق. على وَفْقِ آليات يراعيها المتكلم في كلامه.

كما يعدُّ السياق من العناصر المهمَّة في عملية التواصل والتخاطب التي توظَّف لغايات حجاجية؛ لأنه " يضطلع بأدوار كثيرة في التفاعل الخطابيّ، مثل تحديد قصد المرسل ومرجع العلامات"[(١)]. ولفظ السياق شاع استعماله بمعانٍ مختلفة، فهناك ترادفٌ بين مصطلحي السياق والمقام، ومصطلحي المقام والحال، فالسياق يستعمل طورًا للدلالة على السياق النصي، كما يستعمل للدلالة على الأحوال والملابسات الخارجية التي تستعمل هي نفسها لتأويل لفظة، أو عبارة، أو نص ما. [(٢)]

ويعرّف هاليداي السياق بقوله: "هو النص الآخر، أو النص المصاحب للنص الظاهر، وهو بمنزلة الجسر الذي يربط التمثيل اللُّغَوِيّ ببيئته الخارجية".[(٣)]

ويمكن أن نقف على مظاهر العناية بالسياق في مدونة علماء الإعجاز؛ حيث اعتمد كل منهم على استراتيجيات خطابية خاصة به، تمتد من مرحلة السياق ذهنيًّا، والاستعداد للمناظرة لإثبات إعجاز القرآن الكريم من جميع النواحي بدءًا بإثبات نبوة النبي محمد -ρ- باعتباره حامل رسالة القرآن، إلى إثبات معجزته بكل أساليب الحجاج، والرد على مزاعم الطاعنين والمشككين في وجه إعجازه، الذي يكاد يتفق علماء الإعجاز الذين تناولتهم الدراسة على الإعجاز البلاغي على تباين بينهم في المنطلقات التي اعتمدوا عليها في حجاجهم.

ويمكن اعتبار السياق الاجتماعي، والثقافي، والسياسي، والمذهبي لمدونة الدراسة محورًا ضمنيًّا بنى عليه علماء الإعجاز خطابهم النقدي بأسلوب المناظرة والحجاج المتأصّل في البيئة الكلامية والأصولية، فمصطلحات: الادعاء والدعوى والإثبات والتقرير والسؤال والاعتراض والمعارضة والدليل والشاهد والاستدلال والقياس وغيرها من المفاهيم التي غذَّت العمق الاجتهادي التداولي في الفكر الإسلامي، إلى جانب السياق الزمكاني الذي ينطلق منه، وهو السياق المجتمعي لكلٍ منهم؛ ولذلك أُسِّس خطابهم البلاغي ضمن حقل دراسات الإعجاز القرآني.

وفي خطاب علماء الإعجاز نستطيع الوقوف على المقام والموضوع معًا، والمتجليان في المقصد الذي صرَّح به كل عالم منهم، وهو إثبات إعجاز القرآن الكريم بنظمه الفريد وبلاغته المعجزة في خطابه للناس أجمعين.

والمقام لديهم هو إرشادٌ، تقرير وتوجيهٌ، وانبهارٌ، وتعظيمٌ، وكذلك ردٌّ مفحمٌ على الخصوم وتبكيت، ويتَّضح ذلك لديهم على مستويين:

---

(١) عبد الهادي ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ط١، ٢٠٠٤م، ص ٤٠.

(٢) ينظر: محمد الولي، "السياق إشكالية قديمة في أضواء جديدة"، مجلة الإحياء ، مجلة فصلية تصدرها الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، المغرب، العدد٢٥، ٢٠٠٧م، ص٦٣.

(٣) ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، دلالة السياق، منشورات جامعة أم القرى ، السعودية، ١٣٢٤هـ ، ص ٥١ و٥٢.

- تعداد موضوعات كتبهم، وكلها متفرّعةٌ من الموضوع الأساس الذي لأجله أُلّف الكتاب.
- تعداد الأفكار والطروح في كل موضوع، مدعَّمًا بعددٍ من الحجج، والتقنيات الحجاجية.

و نسوق شاهدا على ذلك عند **الخطابيّ** الذي يعتمد أسلوب التقرير والإخبار في رده على المزاعم، أو في بيان رأيه في الإعجاز والبلاغة، والفروق اللُّغَويّة بين المترادفات، وغيرها من المسائل التي عرضها في رسالته. لكننا نلحظ أن اللغة الأدبية التي صاغها **الخطابيّ** في خطابه الحجاجي تراعي حال المخاطبين من خلال تخصيص الخطاب لكل فئة، وعرض الحجج التي تقنعهم، وتحملهم على الإذعان والتسليم. فنراه في مقدّمة رسالته يوجّه الخطاب لمن سبقه ممَّن درسوا هذه المسألة، وهي الاحتجاج لإعجاز القرآن الكريم، وهم النوع الأول، فيقول:" لقد أكثر الناس في هذه الباب قديمًا وحديثًا، وذهبوا فيه كل مذهب من القول"(١).

ثم هو يسوق الحجج المنطقية والعقلية ليخاطب بها من لم تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه، فهو مقنع لهم؛ لأن نفوسهم تؤمن بإعجاز القرآن العظيم وعجز العرب عن الإتيان بمثله، وهم الصنف الثاني.

أما الصنف الثالث من المخاطبين: فهم من أقرَّ بأن إعجازه من جهة بلاغته، إلا أنَّهم لا يمكنهم تحديد بلاغته بأمرٍ ظاهرٍ يميّزون به بين بلاغة القرآن المعجز، وبلاغة كلامهم فقالوا: "وقد يخفي سببه عند البحث، ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به"(٢).

فحاورهم الخطابيّ وساق لهم حججه البلاغية، والعلل المنطقية فخاض في باطن العلة؛ لتكون الحقائق قائمة على أركان من الأدلة.

والصنف الرابع من المخاطبين في رسالة الخطابيّ: هم المعاندون لبلاغة القرآن الكريم ممَّن كفروا به وأنكروه، فقالوا مرةً إنه شعر، ومرةً سحر، وهو الوليد بن المغيرة الذي صرَّح الخطابيّ بقصة عناده واستكباره التي ذكرها القرآن الكريم.(٣)

وممن يندرج تحت الصنف الرابع يعرض الخطابيّ مخاطبًا مضمرًا غير عالم بدقائق المعاني، والفروق اللُّغَوِيّة بينها؛ ليفصّل له القول ببيان الفروق اللُّغَوِيّة بين المترادفات، ممَّا يحتج به على بلاغة ألفاظ القرآن ودقة استعماله للغة.

ثم يأتي المخاطبون الطاعنون في استعمالات القرآن لبعض الكلمات، وأنها ليست واقعة موقعًا أمكن يمتاز عمدًا فيه المخالفة والضعف، وأن بعض الصياغات ليست ممَّا يقع في جيد الكلام. وقد تصدَّى الخطابيّ لهذه المزاعم، وساق الحجج لتبيان خطئها، وجلى وجه الصواب والدقة(٤).

وننتقل **للجُرْجَاني** الذي احتجَّ على أهمية العلم، والنحو، والشعر في عرض بداية كتابه الدلائل متأثرًا بالسياق الثقافي واللُّغَوِيّ، الذي تدهورت فيه النواحي الثقافية، والاجتماعية وكثرت النزاعات المذهبية بين فرق المتكلمين، فهذه الأحوال المجتمعية تعمل كمضمرات سياقية في إنتاج الخطاب وتأويله. واستخدم عبد القاهر آليات مناسبة لمقام القول لإيصال أفكاره عبر الخطاب من اللغة التي سخَّرها، وأسلوب الطرح المعرفي لأفكاره، فهي لغة تسهم في " تحقيق التفاعل بين طرفي الخطاب بما يناسب السياق بمجمله"(٥)متتبعًا في ذلك أسلوب عرض الفكرة والإتيان بنقيضها ودحضها. ومن شواهد عناية الـجُرْجَانيّ بما يتطلبه المقام من

(١) بيان إعجاز القرآن، ص٢١.

(٢) بيان إعجاز القرآن، ص٢٤.

(٣) ينظر: بيان إعجاز القرآن، ص ٧١.

(٤) ينظر: السابق، ص ٣٨-٤٥.

(٥) عبد الهادي ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص١٨٠ .

توسع في سوق الحجج والبراهين مع مخاطبه في (الرسالة الشافية) عند الرد على الطاعنين في تحدي القرآن الكريم بدعوى أن بلاغة نظمه وقوة سبكه معهودة عند العرب، وأنهم قادرون عليها.(١)
والـجُرْجَانيّ هنا يدعو المحاجج أن لا يسلك مع خصمه مسلكًا غامضًا مع توفره على الحجج الدامغة؛ بمعنى أن يسوق حججًا مفحمة للخصم لا تدع له مجالًا للرد والجدال، أما التساهل بذكر حجج قابلة للنقاش والرد؛ فذلك يضعف الخطاب الحجاجي ويدع للمخاطب الفرصة لإطالة الحجاج دون جدوى.

المبحث الثالث: الحجاج اللُّغَوِيّ – آليات شبه منطقية (الروابط والعوامل الحجاجية)

أسهمت النظرية الحجاجية في الانفتاح على البحث اللُّغَوِيّ بصفته أحد مكونات القول الحجاجي، ووظَّفت مجموعة من المفهومات المعتمدة على الدرس اللساني، مثل: الروابط الحجاجية مفرقة بينها، وبين العوامل الحجاجية.(٢).

السلالم الحجاجية:

يعدُّ السُلَّم الحجاجي من مقتضيات النظرية الحجاجية، وتنطلق نظرية السلالم الحجاجية عند ديكرو من إقرار التلازم في عمل المحاجة بين قول الحجة في "ج" ونتيجة "ن"، ومعنى الملازم أن الحجة لا تكون حجةً بالنسبة للمتكلم إلا بإضافتها إلى النتيجة مع الإشارة أن النتيجة يصرح بها أو تبقى ضمنية، وقد لاحظ ديكرو وهو يشرع في تحديد مفهوم هذه النظرية أن كثيرًا من المكونات اللُّغَوِيّة ذات وظيفة حجاجية توجه المتلقي نحو نتيجة معينة، أو تحول وجهه إلى ضدها. وقد صاغ "ديكرو" نظرية السلالم الحجاجية والخصائص التي تميز الحجاج من متصور نظام للحجج قائم على معيار التفاوت في درجة القوة والضعف.(٣).

وننتقل إلى الروابط والعوامل الحجاجية، ومدى مستوى فاعليتها في الخطاب الحجاجي لمدونة علماء الإعجاز بأمثلة تبين ذلك:

أ- **الروابط الحجاجية:**

يمثّل الرابط الحجاجي وَحْدَة مورفولوجية تصل بين ملفوظين أو أكثر، جرى سوقهما في إطار استراتيجية واحدة، وتعد من العناصر النحوية والظروف (الواو، الفاء، لكن، إذن، حتى، لأن، بل، لاسيما، بما أن، إذا، لا، إلا... الخ) وتقوم بالربط بين فعلين لُغَويين اثنين، فهي موصل تداولي يعمل على تفكيك مكونات الفعل اللُّغَوِيّ؛ ليحمل منها أفعالًا لُغَوِيَّة يحمل عليها وهي منفصلة بعضها عن بعض(٤).

وللروابط الحجاجية دورٌ كبير وظاهر في حجاج مدونة الإعجاز القرآني. و"يكمن دور الروابط الحجاجية واستثمار دلالتها في ترتيب الحجج ونسجها في خطاب واحد متكامل؛ إذ تفصّل مواضع الحجاج، بل وتقوى كل حجة منها الحجة الأخرى، انطلاقًا من أنه عندما يكون تحت تصرفاتنا عدد من المعطيات فإننا نمتلك إمكانات هائلة لنتمكن من الربط بينها"(٥).

---

(١) ينظر:الجُرْجَانيّ، الرسالة الشافية،، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف ،١٩٧٩م ص١٤٢ .

(٢) ينظر: شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، (مقال) ضمن كتاب، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إصدار فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف: حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس، ١٩٩٩م، ص ٣٧٦.

(٣) ينظر:العزاوي، اللغة والحجاج، ص ٢٠ – ٢١

(٤) ينظر: اللغة والحجاج، ص ٢٧.

(٥) عبدالهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص ٤٧٢.

وقد صنّفها أبو بكر العزاوي إلى عدة أنماط هي الروابط المدرجة للحجج (حتى، مع، ذلك، لأن...) الروابط المدرجة للنتائج (إذن، لهذا، من ثمَّ...)، روابط التعارض الحجاجي (بل، لكن، ..)، وروابط التساوق الحجاجي (لا سيما...)[١]. وسنذكر بعضًا من تلك الروابط لنتبين فاعلية توظيفها في مدونة الدراسة.

- الرابط الحجاجي (الواو):

تعدُّ الواو من أهم الروابط الحجاجية؛ إذ لا يقتصر دورها على مجرد الجمع بين الحجج فحسب، بل تعمل على تقوية الحجج بعضها ببعض لتحقيق الإقناع المطلوب، وهي من الروابط الحجاجية المدعمة للحجج المتساوقة أو المتساندة. وتعمل على الربط النسقي أفقيًّا على عكس السلم الحجاجي[٢]. والأمثلة على ذلك كثيرة في المدونة الإعجازية.

ومن ذلك ما نجده عند**الخطابيّ** في رسالته يقول: " والعلة فيه أن أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها بنسبة التبيان متفاوتة ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية، فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائر الطلق الرسل. وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة "[٣].

فالرابط الحجاجي (الواو) جمع بين عددٍ من الحجج المتساوقة، كما قام بترتيب الأقسام المتباينة لإثبات الحجة في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم في جمعه بين المتباينات على نحو من الاتساق والالتئام ترتيبًا حجاجيًّا من الأدنى إلى الأعلى. فتجئ بلاغته مفارقة لبلاغات البشر؛ إذ قد تجئ هذه الأقسام الثلاثة للكلام الفاضل المحمود، وهي:

١- البليغ الرصين الجزل (أعلى طبقات الكلام).
٢- الفصيح القريب السهل (أوسطها) .
٣- الجائز الطلق الرسل (أدناهما) .

فتجيء في كلام البلغاء على سبيل التفرق، أما أن تجتمع في موضع واحد فذلك ما تعجز عنه بلاغة البشر.

وقد أدَّى الرابط الحجاجي (الواو) دوره في الجمع بينها ليؤكد اجتماعها في بلاغة القرآن الكريم على وجه الحقيقة والبيان.

الرابط الحجاجي (بل):

وتكمن حجاجيتها في أن المرسل يرتب بها الحجج بما يمكن تسميته بالحجج المتعاكسة. وذلك أن بعضها منفي، وبعضها مثبت؛ لأن بل (حرف إضراب)، وله حالان الأول: أن تقع بعده جملة، والثاني: أن يقع بعده مفرد، فإن وقع بعده جملة كان إضرابًا عما قبلها إما على جهة الإبطال وإما على جهة الترك للانتقال من غير إبطال، فإن كانت بعد نفي فهي لتقرير الحكم الأول وجعل ضده لما بعدها[٤].

وقد أحسن **البَاقِلَّانيّ** توظيف هذا الرابط في حجاجه إذ يقول: " ثم أعلمهم عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن، وأن القدر الذي تتناهى إليه قُدَرهم هو ما لم يخرج عن لغتهم ولم يشذ عن جميع كلامهم، بل قد

(١) ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص ٣٠.

(٢) ينظر: الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص ٤٧٢.

(٣) بيان إعجاز القرآن، ص ٢٦.

(٤) ينظر: الحسن بن قاسم المرادي، الجني الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص ٢٣٥.

عرض في خطابهم ووجدوا أن هذا لـمّا تعذَّر عليهم مع التحدي والتقريع الشديد والحاجة الماسة إليه، مع علمهم بطريق وضع النظم والنثر، وتكامل أحوالهم فيه؛ دل على أنه اختص به ليكون دلالة على النبوة ومعجزة الرسالة "[1].

فبعد أن نفى البَاقِلَّانيّ خروج ألفاظ القرآن عن كلام العرب أثبت من خلال الرابط (بل) وجود أساليبه وألفاظه في خطابهم، ومع هذا تعذَّر عليهم وأعجزهم الإتيان بمثله ليدل على إثبات الحجة بنبوة النبي -ρ- ومعجزة رسالته. وقد ساند الأداة (بل) في رفع مستوى الحجة من الأدنى إلى الأعلى رابط آخر وهو الأداة **(مع)** التي ساق من خلالها حججًا أخرى وهي التحدي والتقريع لهم لعلمهم بالنظم والنثر؛ وبالرغم من ذلك ظهر عجزهم وعدم قدرتهم على محاكاته لا لفظًا ولا معنى. وتأكَّد بذلك إعجاز القرآن الكريم.

و يمكن تمثيل السلم الحجاجي على هذا النحو:

(ن) إثبات نبوة الرسول-ρ- ومعجزة رسالته (نتيجة).
(ح ٢) وجود أساليبه وألفاظه في خطابهم .
الرابط بل .
(ح١) نفي خروج ألفاظ القرآن عن كلام العرب.

فاستخدام (بل) هنا للانتقال من حجة دنيا في الحجاج إلى حجة أقوى منها؛ ولتكون الحجة الثانية بعدها أقوى من الحجة التي قبلها.

- **الرابط (حتى):** ولها معانٍ واستعمالات وظيفية على حَسَبِ ما يقتضيها السياق. فمن معانيها انتهاء الغاية، أو العطف، أو السببية. وهي من الروابط الحجاجية التساوقية القوية فالحجة التي ترد بعد هذا الرابط تكون هي الأقوى[2].كما تعمل على ترتيب الحجج داخل الخطاب.

ومن شواهدها عند **الرُّمَّانيّ** أنه جعل أعلى مراتب حسن البيان للكلام الذي "جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم، حتى يحسن في السمع، ويسهل على اللسان، وتتقبله النّفس تقبّل البرد، وحتّى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حق من المرتبة"[3]

ويفهم من مصطلح تعديل النظم في موضع آخر من رسالته أنه للدلالة على الملاءمة بين الحروف في الكلمة الواحدة، وليس النظم الذي يربط الكلمات بعضها ببعض ليتكون منها نص مترابط متسق الأجزاء؛ وعلَّل ذلك باستعمال الرابط الحجاجي (حتى) ليحصل باعتدال ترتيب الحروف تقبُّلها في السمع وسهولتها على اللسان، وانشراح النفس بالقدر الذي يفي بالمعنى المراد ويؤدي الحق المنتظر. ويكون ترتيب الحجج على النحو الآتي:

تعديل النظم (النتيجة).
(ح١) حتى يحسن في السمع ويسهل على اللسان وتتقبله النفس.
(ح٢) حتى يأتي على مقدار الحاجة .

(١) إعجاز القرآن، ص ٩٧.

(٢) ينظر: اللغة والحجاج، ص ٧٣.

(٣) النكت في إعجاز القرآن، ص ٧٥.

كما استعمل **الـجُرْجَانيّ** هذا الرابط في تقوية حجاجه، سواء في عرض الزعم والحجة أو في الرد عليها والاحتجاج بضدها. فنجده يتدرج في حجاجه بتوظيف الروابط الحجاجية؛ حيث أكَّد شرط الفصاحة، وهو التلاؤم اللفظي باستخدام النفي والاستثناء، ثم احتجَّ لاعتدال الحروف وتناسب مخارجها في النطق بالرابط الحجاجي (حتى) ، وذلك بعدم تقارب مخارجها عند النطق؛ مما يؤدي إلى ثقلها على اللسان فقال: "وهي أن يدَّعي أن لا معنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظي، وتعديل مزاج الحروف **حتى** لا يتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان"(١). والـجُرْجَانيّ مع إقراره بضرورة تلاؤم مخارج الحروف إلا أنها ليست بمفردها ما يكسب اللفظ صفة الفصاحة؛ لذا فقد فصَّل القول بمحاورة مخاطبه بقوله:

" فإن قال قائل: إني لا أجعل تلاؤم الحروف معجزًا **حتى** يكون اللفظ مع ذلك دالًّا. وذاك أنه تصعب مراعاة التعادل بين الحروف إذا احتيج مع ذلك إلى مراعاة المعاني.."(٢).

ثم يأتي الرد الحجاجي مدعومًا بـــ(حتى) التي تدل على أن ما بعدها غاية لما قبلها فيقول: " فإن الذي يتوهم أنه يحتاج إلى طلبه هو ترتيب الألفاظ في النطق لا محالة، وإذا كان كذلك فينبغي لنا أن نرجع إلى نفوسنا فننظر: هل يتصور أن نرتب معاني أسماء وأفعال وحروف في النفس، ثم يخفى علينا مواقعها في النطق؛ **حتى** نحتاج في ذلك إلى فكر وروية"(٣)؛ ليؤكد بذلك الحجاج فكرتَه في المعاني النفسية، وأنها تترتب في العقل أولًا، ثم تخرج بألفاظها مرتَّبةً في النطق.

- الروابط الحجاجية [إذا – لو – أما]

ويسميها طه عبدالرحمن بالاستدلال المركب، وهو باستعمال الجملة الشرطية، سواءً كانت الصفة الشرطية صريحةً باستعمال أداة الشرط إذا، ولو، أو ضمنية معبَّر عنها بكيفيات أخرى كأداة الحصر (إنما)، أو كالاستثناء والنفي (لا – إلا) وتشكل الجملة المقدمة العلة والجملة الثانية المعلول. وتتوالى الجمل الشرطية للوصول للنتيجة(٤).

ويعلل طه عبدالرحمن هذه القاعدة الحجاجية بأن منشأها هو "المبدأ الأصولي الكلامي الذي ينص على أن العلة تدور مع المعلول وجودًا وعدمًا، وأن الأصل في هذا القانون الحجاجي هو قاعدة تخاطبية: مقتضاها أن المتكلم يخبر المخاطب بأقصى ما يمكن من الفائدة؛ فيصير هذا الأخير إلى حمل قوله على إفادة أن العلاقة بين المقدم والتالي علاقة شرط، طردًا أو عكسًا معا. وتعرف هذه القاعدة (بقانون الاستيعاب)"(٥).

ويكثر الاستدلال باستعمال الروابط الشرطية في مدونة علماء الإعجاز تأثرًا بالمذهب الكلامي الذي غلب عليهم، علاوةً على قوة الاحتجاج والاستدلال التي يحملها هذا القانون.

يقول **الرُّمَّانيّ:** " **فإذا** كانت المشاكلة وصلة إليه فهو بلاغة، **وإذا** كانت المشاكلة على خلاف ذلك

(١) دلائل الإعجاز، ص ٥٧.

(٢) السابق، ص ٦٠.

(٣) السابق، ص ٦٢.

(٤) ينظر: اللسان والميزان والتكوثر العقلي، ص ٣٥٦.

(٥) السابق، ص ٣٩٧.

فهو عيب..."[١]. ففند باستعمال الرابط الشرطي (إذا) الذي ربط بين السبب والنتيجة ربطًا منطقيًّا حجاجيًّا؛ فتكون المشابهة بلاغة إذا أفادت معنى، وتكون عيبًا إذا لم تفد معنى، وذلك بمساندة الروابط الحجاجية المدعمة للحجة والمبينة لها.

كما وظَّف **الخطابيّ** الروابط الحجاجية إذا وإمَّا في حجاجه لضرورة الانسجام بين الألفاظ والمعاني، وهو الرونق الذي عبّر عنه الخطابيّ بأنه قد يذهب إذا اختل تآلف الألفاظ وتناسبها مع سياق المعاني، فقال: "إن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي **إذا** أُبدل مكانه غيره جاء منه: **إمَّا** تبدُّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، و**إمَّا** ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"[٢].

ونجد ذلك أيضًا في حجاج **القاضي عبدالجبار**، حيث يقول " **فأمَّا** حسن النغم وعذوبة القول فممَّا يزيد الكلام حسنًا على السمع"[٣]. فتمثّل (أمَّا) مع جملتها مقدمة حجاجية لنتيجة مؤكدة لا تقبل الشك أو الاحتمال في نظر المحاجج الذي يفصلها تفصيلًا يُبيّن صحتها، ويؤكد أهميتها .

ب)العوامل الحجاجية:

العامل الحجاجي هو وَحْدَة مورفولوجية إذا جرى تطبيقه في محتوى أو ملفوظ معين يؤدي إلى تحويل الطاقة الحجاجية لهذا الملفوظ. ويقوم العامل الحجاجي بالربط بين وحدتين دلالتين داخل الفعل اللُّغَويّ نفسه .[٤].

ورأينا سابقًا أن الروابط الحجاجية تقوم بالربط بين ملفوظين. وفي المقابل نجد أن العوامل الحجاجية لا تربط بين متغيرات حجاجية؛ فهي "تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية لقولٍ ما"[٥]. وسنذكر بعضًا من تلك العوامل ودورها الحجاجي في مدونة الدراسة.

- العامل الحجاجي (إنما):

وتفيد القصر، وهي في معنى (لا.. إلا) ويقتصر دور هذا العامل على الحجاج لا على الإخبار، وهو ما تنبه إليه عبد القاهر الـجُرْجَانيّ فقال: " اعلم أن موضوع (إنما) على أن تجئ لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته،... ولكن لمن يعلمه ويقرُّ به "[٦].

فتتمثل وظيفة (إنما) في كونها تزيد في القوة الحجاجية. وقد وردت كثيرًا في توجيه خطاب علماء الإعجاز للتأثير في المتلقي وحمله على الاقتناع والإذعان كما بيَّنَّا سابقًا.

يقول **الخطابيّ:** "فإنَ ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه وتدعو الحاجة إليه فيه، بإزاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار، و**إنما** يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي تعظم العناية بها.. "[٧]. فيحتج الخطابيّ هنا للمواضع التي يحسن فيها أسلوب التكرار: وهي عند الحديث عن الأمور المهمة والعظيمة؛ للتأكيد على أهميتها للمتلقي. ويدعم ذلك التأكيد باستعمال العامل الحجاجي

---

(١) النكت في إعجاز القرآن، ص٩٧.

(٢) بيان إعجاز القرآن، ص٢٩.

(٣) المغني، ١٦/ ٢٠٠.

(٤) ينظر: رشيد الراجتي، الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، (مقال) مجلة عالم الفكر ، العدد٣٤،يوليو ،٢٠٠٥م ،ص ٢٣٥.

(٥)اللغة والحجاج، ص ٢٧.

(٦) دلائل الإعجاز، ص ٣٣٠.

(٧) بيان إعجاز القرآن، ص ٥٢.

(إنما)؛ لتخصيص بلاغة التكرار التي تكمن في الفائدة منه لتعظيم الأمور المهمة ولفت الانتباه لها، وهو يقصد بها الاحتجاج لبلاغة ورود التكرار في النص القرآني.

ونجد ذلك أيضًا عند **البَاقِلَّانيّ** حيث يقول: "فليس الإعجاز في نفس الحروف، وإنما هو في نظمها، وإحكام رصفها، وكونها على وزن ما أتى به النبي -ρ- وليس نظمها أكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة ومترتبة في الوجود، وليس لها نظمٌ سواها.."[١].

ومن ذلك أن خصّص **القاضي عبدالجبَّار** فصلًا من كتابه (إعجاز القرآن) تحت عنوان: (فصل في الطاعنين في القرآن من جهة التكرار والتطويل)، ردّ فيه على إشكالهم القائل بأنّ في الآيات القرآنيّة تكرارًا وتطويلًا يُخلُّ بالفصاحة: بأنّ العادة جارية على بيان الموضوع الواحد في الموارد والأغراض المتباينة بألفاظ مختلفة، وليس هذا من معايب الكلام، وإنّما يُعدّ التكرار معيبًا ومخلًا بالفصاحة إذا جرى التكرار لمطلب بعينه في موضوعٍ وغرضٍ واحدٍ[٢].

فردَّ عبدالجبَّار على زعم التكرار في سورة (الكافرون)، وبيَّن الفائدة منه بزيادة معنًى مقصود؛ ليستنتج بعد ذلك أنه "ليس المعتبر بتكرار اللفظ؛ لأنَّا نعلم أن الحروف والكلمات متكرّرة في كل الكلام، و**إنما** المعتبر بالأغراض والمقاصد"[٣].

العامل الحجاجي (لا.. وإلا):

وهي من التراكيب التي تترتب فيها الحجج على حَسَب درجتها الحجاجية، ويتكون هذا العامل الحجاجي من أداة نفي وأداة استثناء وهو يعمل على تحديد إمكانات الملفوظ وتوجيهه إلى شيء بعينه؛ مؤكدًا ذلك الشيء. وشاهده عند **الخطابيّ** قوله: "إنَّ القول في وجود ألفاظ القرآن وبلاغتها على النعت الذي وصفناه صحيح لا ينكره إلا جاهل أو معاند، وليس الأمر في معاني هذه الآي على ما تأوَّلوه، ولا المراد في أكثرها على ما ظنوه وتوهموه"[٤] فبعد أن رد الخطابيّ على اتهامات المبطلين في اعتراضهم على بعض ألفاظ القرآن التي وردت في ظنهم مخالفةً لمعنى السياق. وفنَّدها بذكر المعنى المعجمي لها، وقد جاء موافقًا للتعبير القرآني عنها. جاء هنا ليلخّص حجاجه مع المعترضين بطريقة صارمة مقنعة استعمل فيها العامل الحجاجي (لا.. وإلا) ليحصر سبب الاعتراض والادعاء، وهو أن ما ذكره من بيان الاستعمال الصحيح للألفاظ القرآنية هو أمرٌ واضحٌ لمن لديه علم وفهم، ولا ينكره إلا جاهل أو معاند. وهي صفاتٌ كشف عنها القرآن الكريم في كل من يعلم الحق وينكره، ويتَّبع سبيل الوهم والظن. "[٥]

ومثاله عندما تنبه **القاضي عبدالجبار** إلى تحديد طبيعة الفعل اللُّغَويّ العادي والفني، أو ما يمكن أن نطلق عليه أدبية الكلام، أو التصرف غير المألوف للغة، وهو ما يقع فيه التفاضل بين الأدباء، وهو معرفة كيفية المواضعة والعلم بطرائق الأدباء في نظمهم للكلمات ورصفهم للعبارات؛ ليتمكن بتلك المعرفة من الاحتذاء والمحاكاة لهم، ويؤكد رأيه ذلك باستعمال العامل الحجاجي (لا.. وإلا)، فيقول:

"واعلم أن ما وقعت عليه المواضعة من كلام وغيره مفاعلة قد تأتي به على جهة الحكاية والاحتذاء، فلا يحتاج إلا إلى العلم بكيفية المواضعة، فعند ذلك يمكنه الاحتذاء والحكاية، وإذا أراد أن يعبر عن المراد

(١) البَاقِلَّانيّ، كتاب التمهيد، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٧م، ص١٧٧، ١٧٨.

(٢) ينظر: المغني، ١٦/٣٩٧ .

(٣) السابق، ١٦/٤٠٠.

(٤) بيان إعجاز القرآن، ص٤١.

(٥) السابق، ص ٧٠.

ويمكن عبارة الغير عن المراد وقد يفعله الفاعل على وجه يتصرف معه فيما تقدَّمت فيه المواضعة، ..."[١].

العامل (لأن):

وهي من ألفاظ التعليل حيث "يبدأ المرسل خطابه الحجاجي بها في أثناء تركيبه، وتستعمل لتسويغ الفعل كما تستعمل لتسويغ عدمه"[٢] وقد كثر استعمالها في مدونة الدراسة لما يقتضيه الحجاج الكلامي من تعليل منطقي يحتج به للإقناع والاستدلال.

وقد ورد عند الخطابيّ -بعد حديثه عن خصائص الألفاظ والمعاني- الحديث عن الأساس الثالث من نظريته، وهو الأساس الذي يكشف لنا عن نظرية للنظم لديه، وهو ما أسماه بـ(رسوم النظم) الذي يحتاج إلى ثقافة وحذق فقال: "أمَّا رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر؛ **لأنها** لجام الألفاظ وزمام المعاني، به تنتظم أجزاء الكلام، ويرتبط بعضه ببعض، فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان".[٣] فعلَّل للأدوات التي لا بد للبليغ والأديب منها. واحتجَّ لها بأنها تمكّنه من التحكم في اختيار الألفاظ المناسبة والمعاني الدقيقة التي تنتظم بها الجمل والعبارات، ويزيد اتساقها وتناسبها حتى تبدو ظاهرةً للنفس ببيان يسحر الألباب، ويسلب النفوس ببلاغته وحسن نظمه.

ويحتج **الرُّمَّانيّ** على أن المعاني لا تنتهي عند حد، وأن الشعراء يتواردون عليها بزيادة أو نقص. فيقول: "فأمَّا دلالة التأليف فليس لها نهاية، ولهذا صار التحدي فيها بالمعارضة؛ لتظهر المعجزة. ولو قال قائل قد انتهى التأليف للشعر حتى لا يمكن لأحد أن يأتي بقصيدة إلا وقد قيلت فيما قيل لكان ذلك باطلًا؛ **لأن** دلالة التأليف ليس لها نهاية، كما أن الممكن من العدد ليس له نهاية ..."[٤].

وذلك إقرار من الرُّمَّانيّ بإمكانية أن يؤلف شاعر قصيدة قد قيلت بنفس معناها قبله، وأن ذلك لا بأس به. وعلَّل ذلك باستعمال العامل الحجاجي (لأن) فدلالة التأليف ليس لها نهاية تقف عندها، ويستلزم هذا الإقرار إثبات إعجاز القرآن الكريم، وأنه قد بلغ نهاية حسن البيان. كما أن فيها إقرارًا بوجود التناص والأخذ بين الشعراء.

المبحث الرابع: الحجاج البلاغي

يعتمد الحجاج البلاغي البياني في إقناع المخاطب على استخدام الأدلة العقلية، والأساليب والفنون البلاغية، والآليات اللُّغَوِيّة التي قد يوظِّفها المخاطب في الكلام من أجل تحقيق الغاية من الحكم المبسوط فيه تصديقًا أو تكذيبًا، إنكارًا أو إقرارًا، أو غير ذلك. ويدخل في مفهوم الحجاج جميع الفنيات والتقنيات التي تؤدي وظيفة حجاجية إقناعية على مستوى التركيب والصياغة والتصوير، وتراعي المقام والمتلقي وعناصر الموضوع.

أولًا: على مستوى الكلمة:

ونقصد به توظيف البنية الصرفية والدلالة المعجمية للمفردات توظيفًا حجاجيًّا يساند التقنيات اللُّغَوِيّة والخطابيّة الأخرى لتقوية الحجة وإقناع المخاطب، ومن ذلك توظَّيف **الخطابيّ للصيغة الصرفية،** وهي صيغة اسم الفاعل في معرض حديثه عن عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن تأليفًا ونظمًا، ومن ذلك قوله: "إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظٌ حامل، ومعنًى به قائم، ورباطٌ لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن

(١) المغني، ١٩٢/١٦.

(٢) الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص٤٧٨.

(٣) بيان إعجاز القرآن، ص ٣٦، ٣٧.

(٤) النكت في إعجاز القرآن، ص ١٠٧.

وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه"[١]. فتكرر اسم الفاعل ثلاث مرات (حامل، قائم، ناظم) دالٌّ على الثبوت والمداومة لتلك الصفات للكلام مطلقًا؛ فكانت تلك الصيغة الصرفية حجة للزوم الصفات المخبر عنها للكلام، وكأن الخطابيّ يضع أصولًا للنظرية اللُّغَوِيّة التي تستند إليها بلاغة الكلام، كما أن التقسيم الصوتي للسجعات المتتالية أضفى قوة أخَّاذة لجمالية العبارة مما يؤثر في المخاطب قَبُولًا وإذعانًا . ثم يحتج باستعمال صيغة صرفية أخرى تحمل طاقة حجاجيّة وهي أفعل التفضيل التي توازن بين طرفين، وتفاضل بينهما وهي (أفصح، أجزل) ويريد بهما الإقناع بتفوق النص القرآني على سائر الكلام، وحيازته لأكمل الصفات سواءً من ناحية اللفظ، أو المعنى، أو التأليف والنظم. وهي عناصر الكلام التي قرَّرها ليمهّد بها للاحتجاج المحوري؛ وهو شمول إعجاز القرآن الكريم لفظًا ومعنى ونظمًا، علاوةً على القيمة التقويمية التي يحملها اسم التفضيل وهي فصاحة النص القرآني وحسنه المتناهي. كما يظهر وعي الخطابيّ بأهمية اختيار الكلمة معجميًّا على حسب ما يقتضيه سياق المعنى عند تعليله للفروق اللُّغَوِيّة بين الألفاظ التي يحسبها الناس مترادفة.

ويؤكد **البَاقِلَّانيّ** في دراسته لإعجاز ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه الوظيفة اللُّغَوِيّة، وهي: الفهم، والإبانة عن المعنى المراد في قوله: "ويبيّن هذا أن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس، وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب، ولم يكن مستكرَهَ المطلع على الأذن.. حتى يتأبَّى بغرابته في اللفظ عن الإفهام، أو يمتنع بتعويض معناه عن الإبانة"[٢].

فنلحظ أن للمفردات التي اختارها البَاقِلَّانيّ والصيغ الصرفية والدلالية دور في الخطاب الحجاجي وهي صيغة اسم التفضيل (أقرب، أوضح) واسم المفعول (مستكْرَهَ) والمصدر (إفهام، إبانة، تعويض) والأفعال (يتخير، يمتنع، يتأتى) فأدَّت جميعها دورها الحجاجي والتداولي للإقناع بضرورة تخير الألفاظ المبينة للمعاني المتناسبة في مخارج حروفها وخفة نطقها وحسن مطلعها والبعد عن الألفاظ الغريبة البعيدة عن المعنى المراد الإبانة عنه، وقد جمع بذلك صفات الفصاحة والبيان البشري ليعضّد بها حجاجه لبلوغ النص القرآني الغاية في ذلك.

كمايعد الحقل الحجاجي من الحقول المعرفية الخصبة التي يكون فيها للمصطلح دلالاته المعرفية لارتباطه بالمنجز الكلامي الذي يستمد أصوله من مصطلحات المتكلمين. ومن أبرز الألفاظ المحورية في مدونة الدراسة وتحمل طاقة حجاجية **معجمية** هي:(**معجزة، الحجاج**) ومشتقاتهما، وكذلك المصطلحات التي ارتبطت بالحجاج مثل: البيان، الدليل، الدلالة، الحجة، البرهان، البينة، حيث زخر حجاج كل عالم بهما، وفي مختلف السياقات لتقوية الخطاب وظهور المقصد والغرض للمخاطب، وهو إثبات إعجاز النص القرآني، وأنه حجة الله تعالى على خلقه في كل زمان ومكان إلى يوم الدين؛ إذعانًا وقَبُولًا وتسليمًا بكل ما جاء فيه.

وهي عند **الخطابيّ** في قوله:" وقد حصل باعترافهم قولًا، وانقطاعهم عن معارضته فعلًا أنه معجز، وفي ذلك قيام الحجة وثبوت المعجزة والحمد لله "[٣] . وكذلك قوله: " فأما من لم يرضَ من المعرفة بظاهر

(١) ينظر: السابق، ص ٢٧.

(٢) البَاقِلَّانيّ، إعجاز القرآن، ص ١٧٨.

(٣) بيان إعجاز القرآن، الخَطَّابيّ، ص٢٩.

السمة دون البحث عن باطن العلة، ولم يقنع في الأمر بأوائل البرهان حتى يستشهد لها دلائل الامتحان، فإنه يقول: إن الذي يوجد لهذا الكلام من العذوبة في حس السامع، والهشاشة في نفسه، ... يباين سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب ..."(١)

ونجد عند **الرُّمَّانيّ** قوله: "وقد عمَّ التحدي به للجميع لرفع الإشكال... ولما تعللوا بالعلم والمعاني التي فيه قال: ﴿**فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ**﴾ هود: ١٣. فقد قامت الحجة على العربي والعجمي بعجز الجميع عن المعارضة؛ إذ بذلك تبين المعجزة "(٢) وقال عن قوله تعالى: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾ التوبة: ١٩. وفي هذا إنكار لأن تجعل حرمة السقاية والعمارة كحرمة من آمن وكحرمة الجهاد، وهو بيان عجيب وقد كشفه التشبيه بالإيمان الباطل والقياس الفاسد، وكذلك الدلالة على تعظيم حال المؤمن بالإيمان، وأنه لا يُسَاوَى به مخلوق على صفته في القياس"(٣).

وعند **البَاقِلَّانيّ** قوله: "إنما احتيج إلى التحدي لإقامة الحجة وإظهار وجه البرهان على الكافة، لأن المعجزة إذا ظهرت فإنما تكون حجة بأن يدعيها من ظهرت عليه، ولا تظهر على مدع لها إلا وهي معلومة أنها من عند الله"(٤) وقال في الحث على وجوب الاشتغال في الكشف عن أسرار إعجاز القرآن الكريم والرد على الطاعنين فيه: "وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن وتكلم في فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام أن يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه"(٥) .

عند **الـجُرْجَانيّ** في دفاعه عن علم الشعر، حيث قال: "أنَّا إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن، وظهرت، وبانت، وبهرت هي أنه كان على حدٍّ من الفصاحة تقصُر عنه قُوَى البشر، ومنتهيًا إلى غاية لا يطمح إليها إلا بالفكر، وكان مُحالًا أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الأدب، والذي لا يشك أنه كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيهما قَصَب الرهان، ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل، وزاد بعض الشعر على بعض كان الصَّادُّ عن ذلك صَادًّا عن أن تُعْرفَ حجة الله تعالى..."(٦) وسنقف هنا عند المفردات التي رفدت حجاجه بطاقات إقناعية وأضفت على استدلاله بيانًا وقوةً، وهي هنا الأفعال المتشاكلة في الدلالة (ظهرت وبانت وبهرت) حيث رتبها ترتيبًا حجاجيًّا تدريجيًّا يصل إلى الغاية، وهي الانبهار بعد الإبانة والظهور، وهي فصاحة النص القرآني التي تعجز عنه قوى البشر، ثم تأمل استعمال كلمة (محال) التي أثبتها بأسلوب القصر والاستثناء بأنه لن يدرك فصاحة الكتاب العزيز إلا عالمٌ بالشعر متذوق له، ثم احتج لأهمية الشعر باستعمال تراكيب وصفية دالة على التحسين والتعظيم من أمره، وهي (ديوان العرب) و(عنوان الأدب). وأكَّد احتجاجه لأهمية علم الشعر عندما جاء بكلمة (صادّ) التي تحمل في دلالتها المعجمية معاني الإعراض والنفور، ثم قرن الوصف بها من لا يهتم لمعرفة حجة الله تعالى؛ ويقصد بها معرفة القرآن الكريم معرفة تدبرٍ، وفهمٍ، وإجلال.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٥.

(٢) النكت في إعجاز القرآن، الرُّمَّانيّ، ص٩٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٨٥.

(٤) إعجاز القرآن، البَاقِلَّانيّ، ص٣٣.

(٥) المرجع السابق، ص ٧.

(٦) دلائل الإعجاز، ص ٨ – ٩.

وفي مبحث الحذف يقول: " أفيكون دليل أوضح من هذا وأبين، وأجلى في صحة ما ذكرت لك من أنك قد ترى ترك الذكر أفصح من الذكر، والامتناع من أن يبرز اللفظ من الضمير أحسن للتصوير"(١) . كما وظَّف الـجُرْجَانيّ مصطلحات (الشك، الظن، الشبهة، الاعتراض) في حواره مع المتلقي الافتراضي منتهجًا سبيل التسويغ والتعليل والتحليل؛ ليعكس القضية التي يثبتها في أول الأمر، وذلك لتقوية الحجة وإزالة الشك من ذهن مخاطبه، ومثاله كلامه في تحليل الاستعارة الواردة في البيت الآتي:

سَالَتْ عَلَيْهِ شِعَابُ الحَيِّ حِينَ دَعَا أَنْصارَهُ بِوُجُـوهٍ كالدَّنَـانِيرِ(٢).

فيقول الـجُرْجَانيّ: "فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها؛ إنما تمّ لها الحسن، وانتهى إلى حيث انتهى، بما توخي في وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد مَلُحَت ولَطُفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها، ... وإن شككت فاعمد إلى الجارين والظرف فأزل كلًّا منهما عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه، فقل: (سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره)، "ثم انظر كيف يكون الحال، وكيف يذهب الحسن والحلاوة، وكيف تعدم أريحيتك التي كانت، وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها؟"(٣).

وكذلك يستعمل علماء الإعجاز في مدونتهم الإعجازية مصطلحات هي بمنزلة آليات للحجاج من مثل (الفكر، البصر، التأمل)؛ وذلك لما لها من دلالات تكثف المعنى الحجاجي وتزيد من قوته الإقناعية.

أولا: على مستوى التركيب:

التفت علماء الإعجاز في إطار حديثهم عن أسرار بلاغة النظم القرآني المعجز لعدد من الآليات اللُّغَـوِيّة التي تعضّد الاستدلال البلاغي.

وقد أشار علماء اللغة والبلاغة إلى أنّ المخاطبين الذين يُلقى إليهم الخبر يصنّفون إلى ثلاثة أصناف(٤):

مخاطب خالي الذهن، مخاطب شاكّ متردّد، مخاطب جاحد منكر. والبيان الحِجاجي في إطار هذا التوضيح يرتبط بالصنفين الأخيرين، باعتبار أنّ الكلام معهما يستدعي توظيف تقنيات الحِجاج التي تدفع الشكّ أو الجحود أو التردّد لدى المتلقين.

وسنذكر أبرز الأساليب البلاغية التي تتعلق بحجاجية التركيب للخطاب الإعجازي وهي:

التقديم والتأخير:

وهو من الأساليب البلاغية المؤثرة في دلالة الخطاب، وهو نوع من التصرف في اللغة لا يتفق مع القواعد الأصلية في ترتيب الكلام، ويستخدم لتحقيق مقاصد حجاجية تؤثر في تقنين استخدام اللغة المتواضع عليها بين المرسِل والمرسَل إليه؛ فيعمد المرسل إلى تبديل مواقع العناصر اللُّغَـوِيّة المكونة للجملة وللخطاب ككل بوصفه استجابة تداولية للعناصر السياقية الداخلية أو الخارجية، ولعناصر المقام(٥).

---

(١) دلائل الإعجاز، ص ١٧٢.

(٢) ينظر: الإشارات والتنبيهات، ص١٩٥، وبلا نسبة في دلائل الإعجاز، ص ٥٩و ٧٨، وعند أبي حيان التوحيدي، علي بن محمد العباس، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م، البصائر والذخائر، ص٢٣٤، ونهاية الأرب، شهاب الدين النويري، تحقيق: مفيد قميحة وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م، (٧٤/٧) . ولم أقف عليه في ديوان ابن المعتز.

(٣) دلائل الإعجاز، ص١٣١.

(٤) ينظر: القزويني ،محمد بن عبد الرحمن الخطيب ، الإيضاح في علوم البلاغة ،تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ،دار الجيل ، بيروت ، ط٣ ،ص٢٣-٢٤.

(٥) ينظر: استراتيجيات الخطاب، ص ١٤٢.

وقد تعدَّدت في مدونة علماء الإعجاز صور التقديم والتأخير التي كانت تقصد إلى غايات حجاجية وسنعرض بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر.

يقول **الخطابيّ:** "إن في الكلام ألفاظًا متقاربة المعاني، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب.. والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك؛ لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها"(١).

فقدَّم الخبر (المسند الاسمي) (في الكلام) و(لكل لفظة) على المسند إليه، ليدلّل على أن المقدَّم هو ما يحمل القضية المحورية، وهو الكلام في الجملة الأولى، واللفظة في الجملة الثانية، وليؤكد أن الاهتمام بعموم الكلام له صفات وأحوال تقوم على ترتيب الألفاظ على حَسَب معانيها التي توظَّف حجاجيًا لأداء المعنى الذي يتطلبه سياق الكلام.

وقدَّم **البَاقِلَّانيّ** المسند إليه الاسمي في إثباته عظم المقدم وهو القرآن العظيم المتصل بأداة التوكيد (إنه)، ثم أعاده بضمير منفصل (فهو) وذلك لغرض حجاجي هو التأكيد على إثبات صفات الكمال من سهولة المخارج، ووضوح المعنى، ونفي صفات النقص من الغرابة والتكلف، فقال: "إنه سهلٌ سبيله فهو خارج عن الوحشي المستكرَه، والغريب المستنكَر، وعن الصنعة المتكلفة.. يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس"(٢).

كما قدَّم المسند الاسمي لغاية حجاجية هي تأكيد النفي، وذلك في قوله: "ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع... على هذا الطول، وعلى هذا القدر..."(٣) وفي تقديم (للعرب) على (كلام) تنبيه للطرف الأول في الموازنة التي عقدها البَاقِلَّانيّ بين كلام العرب شعرًا ونثرًا وبين النص القرآني، واحتجاجه بنفي اشتمال سائر كلام العرب شعرًا ونثرًا على الفصاحة والبلاغة، وأنه يعتريه الاختلال والنقص إذا طال واستطال وتنوعت مشاربه ومعانيه، وأكَّد حجاجه بأسلوب القصر بإنما والتقابل علاوةً على التقسيم الصوتي الذي اتصف به حجاج البَاقِلَّانيّ في كتابه.

ومن جميل التقديم عند **الـجُرْجَانيّ** ما أورده في توضيح سبب عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، ببيان ما أعجزهم في نظمه وخصائص أسلوبه ولفظه، وذلك بتقديم المفعول به على الفاعل للإمعان في تبكيت المعارضين والمشككين؛ فقدَّم ما يحتجُّ به على ضعفهم، أو ما يصفهم به من العجز وعدم القدرة على إدراك أسرار بيانه.

فقال: "أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها،... "(٤).

التكرار:

التكرار أسلوب لُغَوي يؤدي أغراضًا متعددة من أهمها تأكيد التبليغ والإفهام .كما أنَّه يحقق الربط بين أجزاء الكلام والتماسك النصي. "ومن طرائق عرض الخطاب عرضًا حجاجيًّا، اعتماد التكرار لإبراز شدة حضور الفكرة المقصود إيصالها والتأثير بها"(٥) فالمتكلم يكرر أجزاءً من كلامه لإثبات دعوى يريد

(١) بيان إعجاز القرآن، ص ٢٩.

(٢) إعجاز القرآن، ص ٦٩.

(٣) المرجع السابق، ٥٣

(٤) دلائل الإعجاز، ص ٣٩.

(٥) عبد الله صوله، الحجاج أطره ومنطلقاته " من خلال مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتكا "،كلية الآداب، منوبة، تونس، د ت، ٣١٨.

إبلاغها وإقناع المخاطب بصدقها، كما أنه من تقنيات جذب انتباه المخاطب واستمالته؛ ومن ثمَّ يؤدي بذلك وظيفته الحجاجية .

ومن شواهده في مدونة الدراسة: تكرار الرُّمَّانيّ عند تحليله لبلاغة الاستعارة وتأكيده على جملة "والاستعارة أبلغ من الحقيقة " في كل مرة يحلل فيها استعارة قرآنية، ولا شك في أن ذلك التكرار المتعمَّد منه هو وسيلة حجاجية لُغَوِيَّة يدعم بها رأيه في تفضيل الاستعارة القرآنية وقدرتها على بلوغ المعنى المراد بقوة وبيان يعجز أمامه الاستعمال الحقيقي للمعنى. ونورد نص قوله: "وقال عزَّ وجلَّ ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ**﴾، الحجر: ٩٤. حقيقته فبلغ ما تؤمر به، والاستعارة أبلغ من الحقيقة، لأن الصدع بالأمر لا بد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة، ... وقال تعالى ﴿**سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ**﴾، الملك ، ٧-٨ . "شهيقًا" حقيقته صوت فظيع كشهيق الباكي، والاستعارة أبلغ منه وأوجز، ... "[١].

وفي تكرار **الخطابيّ والـجُرْجَانيّ** للأفعال التي يقصد بها لفت انتباه المخاطب وهي(اعلم، اسمع، افهم) وهي من أفعال الأمر الإنجازية التي يضاعف تكرارها من قوتها الحجاجية، ومثال ذلك قول الخطابيّ " فتفَهَّم الآن، واعلم أن القرآن إنما صار معجزًا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعاني... ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات..."[٢] فتكرار هذه الأفعال ضاعف اهتمام المخاطب بما جاء بعدها من آراء نقدية وملاحظ بيانية مدعمة بالشواهد والبراهين.

ثانيا: على مستوى الصورة:

يؤكد السكاكي أن "الاستدلال البلاغي أو المجازي أكثر تأثيرًا من غيره، فإن أرباب البلاغة وأصحاب الصياغة للمعاني مطبقون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأن الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه، وأن الكناية أوقع من الإفصاح بالذكر"[٣] فالتشبيه والاستعارة من مسالك الاستدلال والحجاج، كما يتضح أن الجملة المجازية تدَّعي دعوى وتُثْبِت، أو تنفي أمرًا، ومن ثمَّ فإن وظيفتها استدلالية حجاجية، وبالمقابل فالاستدلال "ليس عملية عقلية استنباطية محضة بل عملية خطابية، لذلك قد لا يخرج الاستدلال عن دائرة التشبيه والاستعارة، وبشكل أعم عن دائرة المجاز "[٤].

وتتنوع وظائف الصورة الحجاجية داخل الخطاب الحجاجي، على حَسَب الأهداف المتوخاة من استعمالها؛ فمنها ما هو متعلق بالقول الحجاجي نفسه كالتكثيف، ومنها ما هو متعلق بالمتكلم كتغييب المسؤولية الواضحة عن القول، ومنها ما هو مرتبط بالسامع كتحريك مخيلته، ومنها ما هو متعلق بالمقام كإبداع صور جديدة، لمعالجة بعض القضايا والوقائع[٥]؛و لهذا فإن الصور البلاغية ليست مجرد زخارف وتنميقات لتزيين الخطاب، بل إنها ذات فعالية حجاجية، من شأنها أن تؤثر في المواقف وتغيرها .

ومن أهم الفنون والتقنيات البلاغية التي تستعمل لغايات حجاجية:

١ ـ **الاستعارة الحجاجية**: وهي "استعارة تدخل ضمن الوسائل اللُّغَوِيّة التي يشغلها المتكلم بقصد توجيه خطابه، ويقصد تحقيق أهدافه الحجاجية، فالاستعارة الحجاجية هي النوع الأكثر انتشارًا لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التواصلية والتخاطبية"[٦]. ولذلك فالاستعارة الحجاجية تؤدي عدة وظائف في عملية التخاطب وعمليتي الفهم والتأويل. وهذه الآلية في الخطاب الحجاجي لا تقف عند حدود التمثيل والمشابهة

(١) النكت في إعجاز القرآن ،ص٨٧.

(٢) بيان إعجاز القرآن ، ص٢٧-٢٩.

(٣)السكاكي ، أبو يعقوب بن أبي بكر محمد بن علي ، مفتاح العلوم، مصر مكتبة مصطفى البابي الحلبي ط٢ ،١٤١١هـ/ ١٩٩٠م ،ص ٤١٢.

(٤) الحبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ضمن الحجاج مفهومة ومجالاته، ٣/ ٤٣.

(٥) ينظر: عبد السلام عشير ،عندما نتواصل نغير- تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج ، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م ،ص ١٢٢.

(٦) اللغة والحجاج، ص ١٠٨.

بين موضوعين؛ بل قد تحول البناء الحجاجي كلّه إلى بناء استعاري يستدعي فيه المعنى الصريح معنى آخر ضمنيًّا، استنادًا إلى المقومات الأساسية في العملية الحجاجية، المتلقي والمقام والمقتضيات التداولية(١).

ويظهر من ذلك أن الاستدلال البلاغي لدى علماء الإعجاز في مصنفاتهم لم يكن لغاية جمالية أدبية، بل كان لغايات حجاجية نابعة من مقاصدهم التداولية.

وعن توظيف علماء الإعجاز لأسلوب الاستعارة في خطابهم الحجاجي لإثبات إعجاز النص القرآني نجد **الخطابيّ** يقول في مقدمة رسالته عن قضية البحث في إعجاز القرآن الكريم: " قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديمًا وحديثًا، وذهبوا فيه كل مذهب من القول، وما وجدناهم بعدُ صدروا عن ري"(٢).

فشبَّه الخطابيّ عدم قدرة المتكلمين على تحديد أسباب إعجاز القرآن الكريم للوصول إلى القول الفصل في ذلك كمن عاد من ورود الماء دون ري وارتواء من العطش؛ ليحتج بذلك العجز وعدم الاتفاق على رأي سديد بأن البحث في أمر الإعجاز يتطلب أمورًا وطرقًا دقيقة في البحث شرع في عرضها في رسالته، وبذلك أدَّت الاستعارة الحجاجية دورًا واضحًا في إجمال القول؛ فيعجز العرب عن بيان وجه الاعجاز في النص القرآني.

ويعبّر **البَاقِلَّانيّ** عن فضل الاستعارة والبيان فيقول: " والاستعارة والبيان في كل واحد منهما ما لا يضبط حدَّه، ولا يقدر قدره، ولا يمكن التوصل إلى ساحل بحره بالتعلم، ولا يتطرق إلى غوره بالتسبب... "(٣).

فيشبه الاستعارة والبيان بالبحر الذي لا يمكن الوصول إلى ساحله وآخره، مهما أبحر فيه؛ لاتساعه وكثرة أبوابه، وهو بذلك يحتج لفكرته القائمة على أن فنون البلاغة وأساليب البيان ممَّا لا يتوصل إليه بمجرد التعلم والدربة؛ فمفهوم البديع والبيان عند البَاقِلَّانيّ يشمل جميع الخصائص اللُّغَوِيّة والصور الفنية التي أطلق عليها المتأخرون كلمة البلاغة بجميع فنونها.

أمَّا الـجُرْجَانيّ فيقول: " إنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر"(٤).

فقد نظر الـجُرْجَانيّ إلى الألفاظ على أنها أرواح حية تنبض جمالًا وأنسًا؛ إذا وضعت موضعها الأنسب، وأناسي ثقيلة على النفس، وتشعر معها بالوحشة والغربة؛ إذا وضعت في غير موضعها اللائق بها في نظم الكلام. وتكررت هذه الاستعارة في حديث الـجُرْجَانيّ عن الألفاظ والمعاني، مما أكسب تلك الاستعارة قيمة حجاجية مؤثرة في إذعان المخاطب وقَبُوله لأفكار الـجُرْجَانيّ برحابة صدر واقتناع.

٢- التمثيل (التشبيه التمثيلي):

وهو من أجل أساليب الحجاج والإقناع، حيث يبرز المعاني المجردة في صور حسية موجزة لها وقعها في النفس. فهو يأتي نتيجةً تدعمها مجموعة من الحجج، أو يأتي حجةً تؤكد بها قضية ونتيجة مجردة.

وقد أشار **الـجُرْجَانيّ** إلى القيمة الحجاجية للتمثيل فقال: "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل

(١) ينظر: رضوان الرقبي ،البلاغة والحجاج، بحث في تداولية الخطاب، ، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٨م ،ص١١٠.

(٢) بيان إعجاز القرآن، ص ٢١.

(٣) إعجاز القرآن، ص ٤٣٠.

(٤) دلائل الإعجاز، ص ٤٦.

إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وكسبها منقبة، وضاعف من قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها... وإن كان حجاجًا كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر..."(١).

وقد استعمل علماء الإعجاز في حجاجهم أسلوب التشبيه على تفاوت بينهم.

يقول **الرُّمَّانيّ** في الفرق بين التطويل والإطناب، مستعملًا في حجاجه وإقناعه للسامع أسلوب التشبيه التمثيلي: " فأما التطويل فعيب وعِيّ؛ لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفي منه القليل؛ فكان كالسالك طريقًا بعيدًا جهلًا منه بالطريق القريب. وأما الإطناب فليس كذلك؛ لأنه كمن سلك طريقا بعيدًا لما فيه من النزهة الكثيرة، والفوائد العظيمة؛ فيحمل في الطريق إلى غرضه من الفائدة على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب"(٢).فهو يريد إقناع مخاطبه بجمال الإطناب وإضافته للمعنى إيضاحًا وفائدة، وبقبح التطويل الذي لا فائدة منه سوى تكثير الكلام، ومجانبة البلاغة التي تعتمد الإيجاز لوصول المعنى ناصعًا للمخاطب، فشبه الأول بمن يسير في طريق بعيدة وعرة، ويتكلف المشقة دون فائدة تذكر؛ جهلًا منه بالطريق الأقرب الأيسر، وشبه الثاني بمن يختار السير في الطريق البعيد لعلمه بما يحصل له من فوائد ومنظر جميل، ومتعة للنفس، وراحة للبدن، حتى يصل لمراده محملًا بتلك المنافع والمحاب.

ونجد ذلك أيضًا عند **القاضي عبدالجبار** في تباين فصاحة الكلام وتفاضله فقال: "وإنما نتبين زيادة الفصاحة لا بتغير المواضعة، لكن بالوجوه التي ذكرناها، وهذا كما نعلم من حال الثياب المنسوجة أنها تتفاضل بمواقع الغزل، وكيفية تأليفه"(٣). فجاء التشبيه ليثبت معنى تفاضل الكلام باختلاف مواقعه وسياقاته وتنوعها كما تتفاضل المنسوجات باختلاف طريقة غزلها وإخراجها في صورة لباس أو غيره؛ ومن هنا يأتي الإذعان والتسليم بعد استحضار الصورة التشبيهية ، واستيعاب قوة ارتباط الصورتين كحجة يستدل من خلالها إلى مفهوم أهمية النظم في الكلام .

.كما تردد عند **الـجُرْجَانيّ** هذا التشبيه "إن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار. وكما أنا لو فضلنا خاتمًا على خاتم بأن تكون فضة هذا أجود وفضة ذاك أنفس لم يكن تفضيلًا له من حيث هو شعر وكلام"(٤). فاحتج لأهمية المعنى الذي يعبر عنه بألفاظ الشعر أو النثر بأن شبهه بصياغة الخاتم والسوار التي يقاس عليهما التفضيل والجودة بدون النظر في كونهما من مادة الفضة والذهب. ليستدل بذلك على نظريته في النظم، وأنّ تناسب اللفظ مع المعنى هو محك التفضيل.

ولم يُعْنَ علماء المدونة الإعجازية عند التمثيل بجانبه العقلي الإقناعي فقط، بل وقفوا كثيرًا عند الأثر الجمالي العميق الذي يحدثه التمثيل في نفس المتلقي، وهو أحد وظائف الحجاج عند بيرلمان(٥).

٣-المحسنات البديعية:

إن المحسنات البديعية يمكن أن تؤدي الوظيفة الحجاجية، باعتبارات محددة. يقول صاحب كتاب (التداولية والحجاج): " إن محسنًا لهو حجاجي إذا كان استعماله وهو يؤدي دوره في تغيير زاوية النظر يبدو معتادًا في علاقته بالحالة الجديدة المقترحة، وعلى العكس من ذلك فإذا لم ينتج عن الخطاب استمالة المخاطب فإن المحسن سيتم إدراكه باعتباره زخرفة أي باعتباره محسن أسلوب ويعود ذلك إلى تقصيره

(١) الجرجاني ،أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر مطبعة المدني ، القاهرة ،ط١ ١٤١٢هـ /١٩٩١م. ،ص ٩٢-٩٣.

(٢) النكت في إعجاز القرآن، ص ٧٩.

(٣) المغني ٢٠١/١٦.

(٤) دلائل الإعجاز، ص ٢٥٥.

(٥) ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته، ١٦٢/٣.

عن أداء دور الإقناع"[١].

ويؤكد ذلك الشهري فيقول: " يستعمل المرسل أشكالًا لُغَوِيَّة تصنف بأنها أشكال تنتمي إلى المستوى البديعي، وأن دورها يقف عند الوظيفة الشكلية، وهذا الرأي ليس صحيحًا؛ إذ إن لها دورًا حجاجيًا لا على سبيل زخرفة الخطاب، ولكن بهدف الإقناع والبلوغ بالأثر مبلغه الأبعد"[٢].

ونقصد بالمحسنات البديعية هنا (الطباق والمقابلة والجناس والسجع) عندما توظَّف لأداء غاية حجاجية في الخطاب، وهذا ما وجدناه في خطاب مدونة الدراسة.

فتأمَّل الطباق والتقابل كيف وظّفه **الخطابيّ** لبيان بلاغة القرآن بعد أن قسَّم أنواع الكلام فقال: " فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والقسم الثاني أوسعه وأقصره، والقسم الثالث أدناه وأقربه، فحازت بلاغة القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة.. وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين؛ لأن العذوبة نتاج السهولة والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعًا من الوعورة "[٣].

ويقول **الرُّمَّانيّ** في تعريف التشبيه وأنواعه: "والتشبيه البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف، والأظهر الذي يقع فيه البيان بالتشبيه به على وجوه منها: إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، ومنها إخراج ما لم تجرِ به عادة إلى ما جرت به عادة، ومنها إخراج ما لا يُعلم بالبديهة إلى ما يُعلم بالبديهة، ومنها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة "[٤].

ويسانده السجع، فتعريف الرُّمَّانيّ للتشبيه وذكر أنواعه قائمٌ على الاحتجاج بالتقابل والطباق الذي يجلي المعنى ويقوي رسوخه في العقل، وبضدها تتميّز الأشياء.

ونجد **البَاقِلَّانيّ** قد أكثر من البديع في خطابه الحجاجي على نحو بديع آزرته ثروة لُغَوِيَّة وحس أدبي، فنلحظ توالي المترادفات المعنوية والسجعات والألفاظ المتجانسة، فيمتزج استعماله لها بين الحلية اللفظية وبين الوظيفة الحجاجية.

ومن ذلك قوله: "فأمَّا شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه، ولا إمام يقتدي به ولا يصحُّ وقوع مثله اتفاقًا، كما يتفق للشاعر البيت النادر، والكلمة الشاردة والمعنى الفذّ الغريب والشيء القليل العجيب... وهذه جملة تحتاج إلى تفصيل، ومبهم يحتاج في بعض إلى تفسير..."[٥].

المبحث الخامس: الاستدلال العقلي:

إنَّ الخطاب الحجاجي عمومًا ذو طبيعة استدلالية حوارية يرمي الاستدلال فيه إلى غاية تداولية متولدة عن الإقناع المتحصل عن الحجاج وهي تغيير موقف المتلقي أو تعديل سلوكه أو إنهاضه إلى الفعل المنشود في الوقت المناسب[٦].

ويتوسل الخطاب الحجاجي بكل ما من شأنه إثبات الرأي المطروح والدفع للاقتناع به، ومن ذلك اعتماده آليات وتقنيات عقلية؛ مما يصله بالاستدلال والمنطق[٧].

---

(١) التداولية والحجاج، ص ٥١.

(٢) استراتيجيات الخطاب، ص ٤٩٧-٤٩٨.

(٣) بيان إعجاز القرآن، ص ٢٦.

(٤) النكت في إعجاز القرآن، ص ٨١.

(٥) إعجاز القرآن، ص ١٦٩-١٧٠.

(٦) ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته، ٣/ ٣٩١.

(٧) ينظر: الأسس النظرية لبناء شبكات قرائية للنصوص الحجاجية(مقال) ضمن الحجاج ومفهومه ومجالاته، ٣/٣٦١.

كما يعرّف الاستدلال بأنه: " عملية تفكيرية تتضمن وضع الحقائق والمعلومات بطريقة منظمة بحيث تؤدي إلى استنتاج أو قرار أو حل مشكلة"(١).

والاستدلال العقلي عند علماء الإعجاز يمكن تعريفه بأنه: العملية العقلية التي يتم بموجبها مخاطبة الفكر والمنطق عند المتلقي مع عدم إغفال الجانب التأثيري الوجداني، وهو استدلال يتخذ آليات مختلفة تتنوع بتنوع المقام ومجال الاستدلال والوظيفة المتوخاة منه ونوعية المتلقين(٢)؛ لذا كان لزامًا أن تُعرّج الدراسة على آليات الاستدلال العقلي في مدونة علماء الإعجاز.

ويفترض الاستدلال وجود ثلاثة معطيات في الأقل هي: الدليل المطلوب، والنتيجة، وعملية الاستدلال التي تمثل العلاقة الرابطة بين الدليل والنتيجة(٣).

ومن أهم أشكال الاستدلال العقلي المنطقي في مدونة الدراسة ما يأتي:

أ- الاستدلال بالقياس:

وهو "آلية من آليات الذهن البشري تقوم بالربط بين شيئين على أساس جملة من الخصائص المشتركة بينهما للوصول إلى استنتاج ما بألفاظ فيها شيء من الالتباس والاشتراك؛ بناءً على أن القياس يقوم على التجربة التي ينطلق منها المتكلم لتشكيل صورة استدلالية"(٤).

ويتألف القياس من جزأين: مقدمات القياس، ونتيجة القياس. وقد نذكر مقدمتي القياس الكبرى والصغرى والنتيجة؛ فيسمَّى قياسًا منطقيًّا وقد تحذف إحدى المقدمتين؛ فيسمَّى قياسًا مضمرًا(٥).

ومن شواهد القياس التامّ في مدونة الدراسة ما قاله **الخطابيّ** عن صفات بلاغة الكلام: "اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به.. "(٦).

فقد علَّل الخطابيّ تفاوت الألفاظ المتقاربة في المعنى في بلاغة أدائها للمعنى عن طريق حجة عقلية قائمة على القياس منطلقًا من **مقدمة كبرى:** " عمود البلاغة وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به "(٧).

يليها **مقدمة صغرى** هي: " أنّ في الكلام ألفاظًا متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة والحمد والشكر والبخل والشح.."(٨)

والنتيجة: هي "لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها، وإن كانا قد يشتركان في بعضها، تقول عرفت الشيء وعلمته: إذا أردت الإثبات الذي يرتفع معه الجهل.. "(٩)

ثم يدلّل الخطابيّ على الفروق اللُّغَوِيّة في استعمال (علم، وعرف)، وغيرها من الألفاظ المتقاربة في المعنى؛ فالخطابيّ يريد بهذا الاستدلال والقياس أن يراعي البليغ في كلامه الفروق الدلالية الإفرادية بين الألفاظ، ويختار كل لفظة على حَسَب ما يقتضيه السياق.

---

(١) فتحي عبدالرحمن جروان، تعليم التفكير مفاهيم وتطبيقات، دار الفكر، الأردن، عمان، ط٢، ٢٠٠٧م، ص ٢٥٦ .

(٢) ينظر: الحجاج في الحديث النبوي، ص ٣١٨.

(٣) ينظر: شكري المبخوت ،الاستدلال البلاغي، دار الكتاب الجديد ،بيروت،ط٢٠٢٢١٠م،ص ١٤.

(٤) عندما نتواصل نغير، تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ٢٠٠٦م، ص ٩١.

(٥) ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته، ٢٦/٤.

(٦) بيان إعجاز القرآن، ص ٢٩.

(٧) السابق، الصفحة نفسها.

(٨) السابق، الصفحة نفسها.

(٩) السابق، الصفحة نفسها.

ومن ذلك عند **الرُّمَّانيّ** في باب الإيجاز قوله:" الإيجاز بلاغة والتقصير عِيّ، كما أن الإطناب بلاغة والتطويل عِيّ"(١) (مقدمة كبرى) عقد فيها الرُّمَّانيّ مقارنة بين لونين بلاغيين؛ ليقيس عليهما تعليله لبلاغة الإيجاز والإطناب، وضعف التقصير والتطويل، ثم تأتي (المقدمة الصغرى) لبيان ذلك وهي قوله: " الإيجاز لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه، وليس كذلك التقصير، لأنه لا بد فيه من إخلال، فأما الإطناب فإنما يكون في تفصيل المعنى وما يتعلق به في المواضع التي يحسن فيها ذكر التفصيل... فأما التطويل فعيب وعِي لأنه تكلّف فيه الكثير فيما يكفي فيه القليل ". وبعد ذلك التعليل والاحتجاج المقنع يخلص إلى (نتيجة) منطقية هي غاية حجاجه في هذا الباب." فإن لكل واحد من الإيجاز والإطناب موضعًا يكون أولى به من الآخر؛ لأن الحاجة له أشد والاهتمام به أعظم" فقد وضع الرُّمَّانيّ معيارًا نقديًّا لاختيار أحد الأسلوبين في الكلام وهو حاجة الكلام لأحدهما بما يقتضيه المقام والحال.

وقد تصدى **القاضي عبدالجبَّار** لمن حاول الطعن في عربية ألفاظ القرآن الكريم، فرأى "أن كل ألفاظ القرآن ألفاظ عربية صحيحة نقية من العجمة، فقد تُلِيَ على العرب قول الله، تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، فلو كان فيه فارسية لاحتجوا عليه بذكره، وفي عدولهم عن ذلك دلالة على فساد هذا الطعن، فلا يصح أن يدَّعي أن قول: سجيل وإستبرق إلى غير ذلك من باب الفارسية"(٢).

وحجة القاضي عبدالجبَّار في ذلك الاستدلال العقلي أنه أرجع تلك الألفاظ إلى أنها عُرّبت فصارت عربية، أو أنها موجودة في اللغة العربية وغيرها من اللغات، فمن قال من المفسرين عن إحدى ألفاظ القرآن إنها فارسية "فمراده أن أصلها **فارسي**، لا أنها على ما هي عليه فارسية، أو مراده أنها مع كونها عربية فارسية، ومتى لم يكن هذا مراده فقد غلط، والذي يدل على غلطه ما يدل عليه من إخبار الله تعالى عن كل القرآن أنه بلسان عربي مبين".(٣)

ب- الاستدلال بالتمثيل:

يمكن القول بأن لسيطرة النزعة الكلامية عند علماء الإعجاز دور في الاعتماد على طرق الاستدلال المختلفة، ومنها التمثيل والقياس وهو من طرق الاستدلال غير المباشر.

وهو عملية فكرية تقوم على تشبيه أمر بأمر آخر في العلة التي كانت هي السبب في حدوث ظاهرة من الظواهر، واعتبار هذا الشبه كافيًا لقياس أمر على آخر(٤).

ويُسَمَّى هذا النوع من الاستدلال عند المتكلمين بالاستدلال بالشاهد على الغائب، وعند الفقهاء والأصوليين بالقياس(٥).

ومن ذلك عند **الرُّمَّانيّ** قوله: " والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله، وذلك بيّن لمن تأمَّله، والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى. وبعض الناس أشدُّ إحساسًا بذلك وفطنة له من بعض، كما أن بعضهم أشدُّ إحساسًا بتمييز الموزون في الشعر من المكسور واختلاف الناس في ذلك من جهة الطباع كاختلافهم في الصور والأخلاق"(٦).

---

(١) النكت في إعجاز القرآن، ص ٧٨.

(٢) المغني، ١٦/٤٠٥.

(٣) السابق، الصفحة نفسها.

(٤) ينظر: عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، دار القلم، دمشق، ط٤، ١٩٩٣م، ص٢٨٩.

(٥) ينظر: السابق، الصفحة نفسها.

(٦) النكت في إعجاز القرآن، ص ٩٥-٩٦.

لقد استخدم الرُّمَّانيّ صورة استدلالية ليوضح بها اختلاف المتلقي في إدراك جمال التلاؤم، ومدى الملاءمة بين نغم الكلمات وأجراسها، وبين ما تحمله من معانٍ، معتمدًا على دقَّة الإحساس ورهافته. وهي صورة يمكن إدراكها في إقامة الحجة؛ وهي اختلاف الناس في تمييز الموزون في الشعر من المكسور، واختلافهم في الطباع، واختلافهم في الصور والأخلاق.

وكذلك من هذا النوع من الاستدلال عند **الخطابيّ** قوله:

" فكيف كان يجوز على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة أن يغفلوه ولا يحوزوا الفلح والظفر فيه لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه، ومعلوم أن رجلًا عاقلًا لو عطش عطشًا شديدًا خاف منه الهلاك على نفسه وبحضرته ماء معرض مشرب فلم يشربه حتى هلك عطشًا؛ لحكمنا أنه عاجز عن شربه غير قادر عليه..."[1].

وإذا أردنا عرض أركان التمثيل في الشاهد السابق سنجدها على النحو الآتي:

- الأصل الممثل به أو المقيس عليه: عدم القدرة على شرب الماء مع قوة الحاجة إليه والعطش الشديد. وفي اختيار الماء دلالة عميقة للتعظيم من شأن إدراك أسرار إعجاز القرآن الكريم الذي لا تحيا القلوب إلا به.

- الفرع (الممثل أو المقيس): عجز العرب وعدم قدرتهم الإتيان بمثل القرآن الكريم، مع قوة بلاغتهم وفصاحتهم.

- العلة الجامعة: الحكم بالعجز، وعدم القدرة مع توفر الأسباب.

- الظاهرة: عجز العرب عن معارضة القرآن مع توفر الدواعي والأسباب؛ لعدم قدرتهم على ذلك في أنه فاقهم ببيانه المعجز كعجز الرجل شديد العطش على شرب الماء؛ لعدم قدرته الحصول عليه مع توفره وقربه.

و**البَاقِلَّانيّ** في استدعائه لقضية السرقات الشعرية يقر بمبدأ الأخذ بين النصوص الأدبية على قدرة الناقد على تمييز نظم شاعر من نظم شاعر آخر، ولا يخفى الفصل بين رسائل عبدالحميد وطبقته وبين طبقة من بعده، وكذلك لا يخفي معرفة سارق الألفاظ وسارق المعاني، فكيف بعد ذلك يخفي عليهم الجنس الذي هو بين الناس متداول وقريب متناول من أمر يخرج عن أجناس كلامهم، ويبتعد عما هو في عرفهم ويفوق قدرتهم ؟ فالعارف بصنوف الكلام يستطيع بما لا يدع مكانًا للشك في قدرته للتمييز بين النص القرآني وبين النصوص البشرية[2].

وفي ذلك إثبات لإعجاز القرآن الكريم بلاغيًّا، فلا يضاهيه أيُّ نصٍ بشري مهما ترقَّى في مدارج الإبداع؛ وهذا هو مدار الحجاج كله.

ج- الاستدلال السببي:

وهو من أنواع الاستدلال العقلي الذي كثُر استخدامه في مدونة الدراسة، ولعل ذلك عائد إلى طبيعة الحجاج الكلامي الذي يستند إلى السبب والمسبب بطريقة عقلية منطقية.

والاستدلال السببي من أبرز الاستدلالات الحجاجية وأقدرها على التأثير في المتلقي؛ إذ يقوم على وجود علاقة سببية يربط بها المتكلم بين أجزاء الكلام وبين الأفكار والقضايا والأحداث لجعل بعضها سببًا لبعض[3].

---

(١) بيان إعجاز القرآن، ص٢٢.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن ، ص١٧٦.

(٣) ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي من الجاهلية إلى القرن الثاني الهجري للهجرة، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠٠٨م، ص ٣٢٧.

وورد ذلك النوع عند المعتزلة في رسائلهم ومناظراتهم، ومن ذلك حِجَاج **الرُّمَّانيّ** في ردّه على من سأل عن اعتمادهم على عجز العرب عن معارضة القرآن دون المولدين مع أنه معجز للجميع كما يوجد للمولدين كلام بليغ كثير؛ فكان السبب: "لأن العرب كانت تقيم الأوزان والإعراب بالطباع وليس من المولدين من يقيم الإعراب بالطباع كما يقيم الأوزان، والعرب على البلاغة أقدر..."(١) ومن ثمَّ فالنتيجة "فإذا عجزوا -أي العرب- عن ذلك فالمولدون عنه أعجز"(٢).

ومن شواهد الاستدلال السببي العقلي عند **الخطابيّ** تعليله لعجز العرب جميعًا أن يأتوا بمثل القرآن الكريم؛ حيث فصَّل في ذكر أسباب منطقية يستدل بها العقل على ذلك فقال في مقدمة الاستدلال السببي: "وإنما تعذَّر على البشر الإتيان بمثله لأمور منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ..."(٣) ثم بعد بيان أسباب العجز العامة المتعلقة بالإحاطة بعلوم اللغة، أتى بالأسباب المتعلقة باختصاص النظم القرآني بمزايا تعجز عنها قدرة البشر فقال: "إن القرآن إنما صار معجزًا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعاني... ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر." فكان هذا الاستدلال السببي وسيلة لإقامة الحجة العقلية التي تفضي إلى التسليم بإعجاز النص القرآني وتفرده؛ ومن ثم الإيمان بكل ما جاء به؛ لأنه من لدن عليم حكيم.

ومما ذكر فيه البَاقِلَّانيّ لفظ (الاستدلال) بالمقارنة والاستقراء ممَّا يرشد به البَاقِلَّانيّ مخاطبه ليقف على إعجاز القرآن الكريم بالوقوف على النماذج المختلفة من البيان، ويتأمَّل ما بينها من تفاوت وتمايز (٤).كما أنه استعمل الاستدلال السببي في احتجاجه لنفي الشعر والسجع عن القرآن الكريم، وأفرد لذلك فصولًا في كتابه.

كما أظهر **الـجُرْجَانيّ** أثر القرآن الكريم في المتلقي بطريقة الاستدلال السببي عندما أكَّد إعجاز القرآن الكريم، وساق الأدلة لإثبات ذلك.

فقال: "أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها و... وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة وعشرًا عُشرًا وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها "(٥).

فهو يذكر أثر تلقي القرآن على النفوس، ويعللّ لذلك الأثر بإحكام نظمه، وتفرد معانيه.

المبحث السادس:

آليات أخرى للحجاج:

توجد آليات متعدّدة للحجاج مما لا تتضمن استدلالًا منطقيًّا أو بلاغيًّا، وتستعمل كأدوات وتقنيات للتوضيح والإقناع، وسنذكر بعضًا منها مما ورد في مدونة الدراسة:

أ- الحجاج بالشاهد:

(١) النكت في إعجاز القرآن، ص ١١٣ .

(٢) السابق، الصفحة نفسها.

(٣) بيان إعجاز القرآن، ص ٢٦ وما بعدها.

(٤) ينظر :إعجاز القرآن، ص ١٩٢.

(٥) دلائل الإعجاز، ص ٩٣.

وهو من الحجج القوية التي يستعملها المتكلم للوصول إلى أغراضه الحجاجية. وقد اعتمدت مدونة الدراسة عليه لعرض الآراء والحجج، خلا القاضي عبدالجبار فلم يعتمد كثيرًا على إيراد الشواهد والتمثيل لما يسوقه من آراء كلامية.

وتوجه الشاهد نحو البعد الاستدلالي التداولي؛ عائد إلى كونه يتلبس بألبسة النص الذي يرد فيه باعتباره دليلًا وشاهدًا في مقام معين، لا يصح أحيانًا أن يكون دليلًا يستشهد به في مقام آخر؛ لذا فإن إيراد الشواهد والأدلة خاضع لبنية السياق التداولي الذي يوظَّف فيه.

ويقصد بالحجاج بالشواهد أنه تضمين الآيات القرآنية والأحاديث وأبيات الشعر والأمثال والحكم، وهي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها(١). والشاهد يجري كما يقول الـجُرْجَانيّ: "مجراه في الشعر والكتابة والبيان والخطابة مجرى الأدلة التي تستنبطها العقلاء والفوائد التي تثيرها الحكماء..."(٢)

ومن نماذج الاستشهاد بآيات من القرآن الكريم في الخطاب الحجاجي في مدونة الدراسة ما ورد عند **الخطابيّ** في احتجاجه لقضية عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن في أن قريشًا التي نزل عليهم القرآن " موصوفون برزانة الأحلام، ووقارة العقول والألباب، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع، والشعراء الـمُفْلِقُون.

وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللدد فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الزخرف، ٥٨، وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ مريم، ٩٧."(٣) ومع امتلاكهم القدرة على الجدل واللدد مع ما هم عليه من البلاغة والفصاحة، إلا أنهم عجزوا عن معارضة القرآن واعترفوا بعجزهم بعد ذلك.

وكذلك استشهد الخطابيّ في حجاجه على الفروق اللُّغَوِيّة بين الألفاظ المتقاربة في المعنى فقال: "ثم قد يكون الشكر قولًا كالحمد، ويكون فعلًا.

كقوله جل وعز:﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ سبأ، ١٣ .

واستشهد **الرُّمَّانيّ** على كل فن بلاغي عرفه، وبيَّن أقسامه بآية من القرآن الكريم يثبت بها وورده في كتاب الله في سياق ونظم غاية في البلاغة والتأثير في المتلقي. كاستشهاده على إيجاز الحذف بقوله تعالى: ﴿واسْأَلِ القَرْيَةَ﴾ يوسف، ٨٢.

" ومنه حذف الأجوبة وهو أبلغ من الذكر وما جاء منه في القرآن كثيرًا كقوله جل ثناؤه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾الرعد، ٣١ كأنه قيل لكان هذا القرآن "(٤)

واستشهد **البَاقِلَّانيّ** على ألوان البلاغة من القرآن الكريم ثم من كلام الرسول عليه الصلاة والسلام ثم من كلام الصحابة والسلف(٥).

ويقول **القاضي عبدالجبَّار** مثبتًا إعجاز نظم القرآن على ما عرفناه من حال القرآن "فإنك تجد مزية عند

---

(١) ينظر: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق، المغرب، ط٢، ٢٠٠٢م، ص ٩٠.

(٢) أسرار البلاغة، ص٢٦٣.

(٢) بيان إعجاز القرآن، ص٢٢.

(٤) النكت في إعجاز القرآن، ص٧٦

(٥) ينظر: إعجاز القرآن ص من ٦٦إلى ١٥٤.

السماع؛ لذلك كان -ρ- ربما اقتصر فيمن يرد عليه من الوفود على أن يقرأ عليه شيئًا من القرآن، وربما كان يحتاج إلى إظهار معجز غيره، وربما يكرر قراءة القرآن عليهم؛ وذلك لأنهم أو أكثرهم -وإن كان بالإدراك والسماع- يعرفون المزية "[١].

فاستشهد القاضي عبدالجبَّار على أن المتلقي المدرك المتأمل لوقع الكلام هو ذلك المستمع الجيد، الذي يدرك بحسه إعجاز نظم القرآن الكريم بما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام عندما دعا الوفود للإسلام فقرأ عليهم القرآن حتى تتأثر قلوبهم، ومن ثمَّ تنقاد نفوسهم للإذعان له، وتعترف بأنه حق من عند الله تعالى.

كما يقرن **عبد القاهر الـجُرْجَانيّ** بين الشاهد والدليل ويجعلهما بمنزلة واحدة، وذلك في معرض حديثه عن منزلة الشعر والنحو من إعجاز القرآن قائلًا: "فسواء من منحك الشيء الذي تنتزع منه الشاهد والدليل"[٢] والشاهد عند الـجُرْجَانيّ يأتي باعتباره دليلًا مفسرًا ومبينًا لمعنى، أو يأتي باعتباره حجة مؤكدة لقضية يثبتها، أو يأتي الشاهد مثالًا، وهذا كثير في تناوله لمسائل البلاغة التي ساق لها العديد من الشواهد القرآنية أو النبوية أو الشعرية.

ب-الاحتجاج بالمثل الحكائي (قصة أو حادثة تاريخية):

من أساليب الحجاج المثل و"يعدُّ حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها ويراد استنتاج نهاية أحديهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها "[٣].

وهو يقوّي حجة المتكلم من خلال تعليقها بمرجع تاريخي، أو تمثيلي أو نموذج من الواقع يعضّد المسار الحجاجي، ويُحدث التماثل بين الآليات الاستدلالية والمقاصد المآليّة[٤]. ولم يكن هذا النوع من الحجاج كثير الورود في مدونة الدراسة؛ لاعتمادهم على تقرير كثير من المسائل الحاضرة في عصرهم؛ ليثبتوا بها إعجاز القرآن الكريم من خلال النص القرآني ذاته.

ومن شواهده عند **الرُّمَّانيّ** في باب الفواصل ما ساقه من مثل يحتجّ به على قبح التكلف في المشاكلة بين الألفاظ على حساب إفهام المعنى؛ حيث أتى بحجة أخرى من قبيل المثل الحكائي، فقال: "فمن ذلك ما يحكى عن بعض الكهان (والأرض والسماء، والغراب الواقعة بنقعاء، لقد نفر المجد إلى العُشَراء)، ومنه ما يحكى عن مسيلمة الكذاب:(يا ضفدع نقي كم تنقين، لا الماء تكدرين، ولا النهر تفارقين) فهذا أغث كلام يكون وأسخفه، وقد بيَّنا علته، وهو تكلف المعاني من أجله، وجعلها تابعة له من غير أن يبالي المتكلم بها ما كانت، وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة "[٥]

و من أمثلته عند **الخطابيّ** احتجاجه على أنه لا يميّز بلاغة القرآن الكريم عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة "إلا العالمون به عند سماعه ضربًا من المعرفة لا يمكن تحديده، وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذي يقع منه التفاضل فتقع في نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك، ويتميّز في أفهامهم من قبيل الفاضل من المفضول منه"[٦] .

وعدَّ الخطابيّ عدم تعليل العالم به لذلك التفضيل إشكالًا أحيل به على إيهام، ثم تمثَّل بهذه القصة فقال: " ذكرت الرواة أن جريرًا مرَّ بذي الرُّمة وقد عمل قصيدته التي أولها:

---

(١) السابق، (٢٠٤/١٦) .

(٢) دلائل الإعجاز، ص ٩

(٣) محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص ٨٢.

(٤) ينظر: الحجاج في الحديث النبوي، ص٣٦٦

(٥) النكت في إعجاز القرآن، ص ٩٧-٩٨.

(٦) بيان إعجاز القرآن، ص ٢٤.

نَبَتْ عَيْنَاكَ عَنْ طَلَلٍ بِحُزْوَى عَفَتْهُ الرِّيحُ وَامْتَنَحَ القِطَارَا[1]

فقال: ألا أنجدك بأبيات تزيد فيها أقفال، فقال: نعم فقال:

يَعُدُّ النَّاسِبُون بَنِي تَمِيـمٍ بُيُوتَ الْمَجْدِ أَرْبَعَةً كِبَارًا

وبيتان آخران:

فوضعها ذو الرُّمة في قصيدته، ثم مرَّ به الفرزدق فسأله عما أحدث من الشعر فأنشده القصيدة، فلما بلغ هذه الأبيات قال: ليس هذا من بحرك مضيفها أشد لحيين منك قال: فاستدركها بطبعه، وفطن لها بلطف ذهنه "[2].

والفرزدق لم يعلّل لتمييز شعر شاعر من آخر وتفضيل أبيات على أخرى، بل عرفها بطبعه ولطف ذهنه.

والخطابيّ بهذه القصة يريد إثبات شيوع هذه النظرة المجملة لبلاغة القرآن الكريم بدون تحليل لأسباب الإعجاز البلاغي، وتحديد سمات هذه البلاغة وماهيتها، وهو ما تردد جيلًا عن جيل. فيقول:

" فيجرُّ فيه إلى التسليم بهذه الصفة للقرآن الكريم على نحو من التقليد وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له، وإحاطة العلم به"[3]. وهذا مباين للمنهجية التي أراد الخطابيّ أن يقررها.

وكذلك حجاج الخطابيّ لإثبات صحة ما ورد من حروف المعاني في القرآن الكريم في دلالتها على المراد، وذلك كما في قوله "سأل رجلٌ بعضَ العلماء عن قول الله عز جل ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ البلد:١ فأخبر أنه لا يقسم ثم أقسم به، وفي قوله تعالى:﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ التين:١-٣. فقال له ابن سريج: أي الأمرين أحب إليك؛ أجيبك ثم أقطعك أو أقطعك ثم أجيبك ؟ قال: بل اقطعني ثم أجبني، فقال له: اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله -ρ- بحضرة رجال وبين ظهراني قوم كانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزًا وعليه مطعنًا، فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به وأسرعوا بالرد عليه... ثم قال له: إن العرب قد تدخل (لا) في أثناء كلامها وتلغي معناها..."[4]. فاحتج الخطابيّ بتلك القصة على بلاغة أسلوب النص القرآني وسلامة تراكيبه من مخالفة طريقة العرب في لغتهم.

و**للجرجاني** في الرسالة الشافية حِجَاج بدلالة الحال، وهو ما يمكن أن يدخل ضمن الحجاج بالمثل، ومنه قوله في إثبات عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن الكريم "مثل رجل عرض له خصم من حيث لم يحتسبه، فادعى عليه دعوى إن هي سمعت كان منها على خطر في ماله ونفسه فأحضر بيّنة على دعواه تلك وعند هذا المدَّعَى عليه ما يبطل تلك البينة أو يعارضها وما يحول على الجملة بينه وبين تفنيد دعواه فيدع إظهار ذلك الاحتجاج به، ويضرب عنه جملة ويدعه وما يريد من إحكام أمره وإتمامه، ثم يصير الحال بينهما إلى المحاربة وإلى الإخطار بالمهج والنفوس فيطاوله الحرب، ولا يقع له في أثناء تلك الحال أن يرجع إلى القاضي الذي قضي لخصمه، ولا إلى القوم الذين سمعوا منه وتصوروه بصورة المحق، فيقول: لقد كانت عندي حين ادَّعى ما ادَّعى بيِّنة على فساد دعواه وعلى كذب شهوده قد تركتها تهاونًا بأمره، أو أنسيتها. ومعلوم بالضرورة أن هذا الرجل لو كان من المجانين لما صح أن يفعل ذلك، فكيف بقوم هم أرجح أهل زمانهم عقولًا وأكملهم معرفة، وأجزلهم رأيًا وأثقبهم بصيرة"[5].

وهو استدلال يتأسَّس على الواقع في بناء مثال يعتمد من خلاله لإثبات فكرة أو حكم بحيث تصبح حالة عامة

(١) ديوان ذي الرُّمة، شرح الباهلي ورواية ثعلب، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ، ١٣٧١/٢.

(٢) بيان إعجاز القرآن، ص٢٥.

(٣) السابق، ص ٢٤.

(٤) بيان إعجاز القرآن، ص ٤٧.

(٥) الرسالة الشافية، ص ١٢١.

فينطلق منها في استدلال منطقي حجاجي.

وأما الحجاج بالشاهد عند الـجُرْجَانيّ في رسالته الشافية فقد سمَّاه دلالة الأقوال؛ حيث ذكر قصة الوليد بن المغيرة عندما سمع القرآن الكريم والافتراءات التي انتهى إليها، ومنها قصة عتبة بن الربيع مع الرسول عليه الصلاة والسلام(١).

ج-الحجاج بالمقارنة:

تعدُّ المقارنة من أساليب الحجاج المؤثرة في إقناع المخاطب، وهي من أساليب الاستدلال شبه المنطقي، ولها دورٌ كبيرٌ في توضيح الفكرة أو القضية المراد الاحتجاج لها. والمقارنة هي:" القدرة على فحص التشابهات، أو الاختلافات في الوقت نفسه "(٢)

وقد ورد الحجاج بأسلوب المقارنة والموازنة في مدونة الدراسة كثيرًا باختلاف المنطلقات التي بنى عليها كل عالم رأيه في القضية التي تدعمها المقارنة.

ومن الشواهد على أسلوب المقارنة لإيضاح المعنى وتقريبه للمخاطب اعتماد **الرُّمَّانيّ** لتأكيد بلاغة الاستعارة ودورها في جلاء المعنى والتأثير في السامع على المقارنة بين الاستعمال الاستعاري للفظ والاستعمال الحقيقي له.

فقال:" فكل استعارة لا بد لها من حقيقة ولا بد من بيان لا يفهم بالحقيقة، ونحن نذكر ما جاء في القرآن من الاستعارة على جهة البلاغة قال الله عز وجل :﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾الفرقان، ٢٣. حقيقة قدمنا هنا: عمدنا وقدمنا أبلغ منه لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر؛ ولأنه عاملهم من أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم، ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم وفي هذا تحذير من الاغترار بالإمهال. والمعنى الذي يجمعهما العدل؛ لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل، والقدوم أبلغ لما بينا "(٣)

و كذلك عند إشارته في باب التجنيس، كأحد أبواب البلاغة التي يظهر بها إعجاز القرآن الكريم، وذلك عند استشهاده على جناس المزاوجة بآيات من القرآن الكريم، ثم مقارنته بالمزاوجة في شاهد شعري؛ ليقرر من خلاله تفوق بلاغة القرآن على بلاغة الشعر.

يخلص من تلك المقارنة إلى روعة التجانس في القرآن، فهو لا يقوم على اللفظ وحده، بل على صحة المعنى.

ويأتي الرُّمَّانيّ بمثالين أحدهما من الشعر وهو قول عمرو بن كلثوم:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدُ عَلَينَـا فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

ويقول: "فهذا حسن في البلاغة، ولكنه دون بلاغة القرآن؛ لأنه لا يؤذن بالعدل كما أذنت بلاغة القرآن، وإنما فيه الإيذان براجع الوبال فقط"(٤)

فقول عمرو بن كلثوم ليس فيه العدالة التي نجدها في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ البقرة: ١٩٤ . وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الشورى: ٤٠.

والثاني قول العرب: الجزاء بالجزاء. والأول ليس بجزاء، وإنما هو على مزاوجة الكلام، فالعلة فيه ليست عدم تحري العدل؛ لأن الجزاء يقال في المكافأة، والمقابلة من الثاني لا من الأول؛ لذا كان معنى قولهم دون

---

(١) ينظر: السابق، ص ٥٨٢-٥٨٣.

(٢) عدة الأدوات الحجاجية (مقال) ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته ٥/ ١٢٩ .

(٣) النكت في إعجاز القرآن، ص ٨٦.

(٤) السابق، ص ١٠٠.

بلاغة قول القرآن الكريم.

وفي موازنة الرُّمَّانيّ بين الآية الكريمة (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) البقرة (١٧٩)، وبين قول العرب: القتل أنفى للقتل، شاهد آخر على منهجية الموازنة لديه، فأوضح أن الآية تتميز عن المثل من أربعة أوجه أو حجج هي:

١. كثرة الفائدة.
٢. الإيجاز في العبارة.
٣. البعد عن التكرار.
٤. حسن تأليف الحروف وتلاؤمها[١]

ويظهر في هذا النموذج التطبيقي منهج الرُّمَّانيّ في الموازنة بناءً على ما قرره من أن المعتبر هو أن يصل المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وبذلك تكون صورة المعنى هي موضوع الموازنة، وتتضمن ثلاثة أشياء:

١. المعنى المراد تصويره وبيانه.
٢. اللفظ الناتج من التأليف بغية تصوير المعنى وبيانه.
٣. الأثر النفسي الذي تتركه صورة المعنى في نفس السامع.

ويظهر تفوق الآية الكريمة على المثل العربي في جميع هذه الجوانب، كما أوضح الرُّمَّانيّ بلاغة الاستعارة وتميزها عن الحقيقة من خلال الموازنة الضمنية بين الأسلوب الاستعاري والأسلوب الحقيقي في آيات من القرآن الكريم.

ومن الاحتجاج بأسلوب المقارنة لإثبات ظاهرة بلاغية أو الدلالة على حكم بياني ما أورده **الخطابيّ** للاستدلال على مواضع بلاغة أسلوب الإيجاز عند مقارنته بالذكر في شواهد قرآنية في قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ سورة الرعد:٣١، والمعنى: لكان هذا القرآن[٢] فقال: " إن الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب في الحذف كل مذهب، ولو ذكر الجواب لكان مقصورًا على الوجه الذي تناوله الذكر فحذف الجواب[٣]".

وعمد **البَاقِلَّانيّ** لإثبات نفي الشعر عن القرآن إلى العودة إلى متصوّر الشعر في المبحث النقدي، من حيث مصطلح شعر، ومن حيث الوزن، والكم، والمقدار، والقصد، والنية، كما اعتنى بالجانب التركيبي الإيقاعي وزنًا، وقافيةً، ورويًّا، فيؤكد بذلك الفرق بين نمط الإبداع البشري (شعرًا) وبين النظم القرآني المعجز. وقد ذهب إلى تناول أفصح شعر عند العرب في الجاهلية والعصر العباسي لا ليوازن ويفاضل بينه وبين القرآن بحثًا عن علل وأسباب التفوق، وإنما ليثبت أن الضعف يعتري ذلك الشعر والنقص يعتوره، ولا نقص في أسلوب القرآن ونظمه على تفاوت أغراضه ومقاصده. فالبَاقِلَّانيّ يروم الاحتجاج لإعجاز القرآن بإثبات خلوّه من عيوب كلام البشر، ويسوق لذلك الحجج من خلال الموازنة بين الأساليب البشرية لبيان المعنى المراد وبين أسلوب النص القرآني.

فاختار البَاقِلَّانيّ قصيدتين من عيون الشعر العربي؛ ليطبق عليها موازينه في نقد الكلام.، وهما معلقة امرئ القيس التي مطلعها:

---

(١) ينظر: السابق، ٧٨.

(٢) بيان إعجاز القرآن، ص ٥٢.

(٣) السابق، ص ٥٢.

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ(١)

والثانية لامية البحتري التي أولها:

أَهْلًا بِذَلِكُمُ الْخَيَالِ الْمُقْبِلِ فَعَلَ الَّذِي نَهْوَاهُ أَوْ لَمْ يَفْعَلِ(٢)

"وإنما اختار هاتين القصيدتين على ما لهما في نفوس النقاد من مكانة؛ ليتناولهما بالنقد، حتى إذا أسقطهما، وهما من رائع الشعر، كان ما عداهما منه أجدر أن يسقط. وإذا سقط الشعر، وهو مجتلى البلاغة عند العرب وعنوان فصاحتها ومظهر تأتيها للبيان، ثبت الإعجاز للقرآن بطريق الاستدلال العكسي"(٣). كما يوضّح شكل تلك الموازنة بقوله: "ونحن نعمد إلى بعض قصائد البحتري فنتكلم عليها، كما تكلمنا على قصيدة امرئ القيس؛ ليزداد الناظر في كتابنا بصيرة، ويستخلص من سر المعرفة سريرة، ويعلم كيف تكون الموازنة، وكيف تقع المشابهة والمقاربة"(٤).

واستعان **عبد القاهر الـجُرْجَانيّ** بأسلوب الموازنة لإثبات آرائه البلاغية؛ ليخلص إلى نظرته المتكاملة في النظم، فوازن بين الألفاظ المفردة والتراكيب والصور البيانية. فعلى مستوى اللفظ المفرد فإنه قد جعل المزية عنده تظهر في مدى تلاؤم الألفاظ ومناسبتها للمعنى العام وذلك بقوله: "... وأن الفضيلة وخلافها إلى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، مّما لا تعلق له بصريح اللفظ"(٥).

فوازن عبد القاهر بين ألفاظ متفقة في سياقات مختلفة، وأبان عن فضيلته داخل السياق وملاءمته لما جاوره من ألفاظ. ومن ذلك لفظة (شيء)، فقد كانت حسنة مقَبُولة في موضوع، ومستكرهة في موضوع آخر، فجعل الموازنة حجة لتفضيل بيتٍ على آخر؛ ففي قول عمر بين أبي ربيعة:

وَمِن مالِئٍ عَينَيهِ مِن شَيءِ غَيرِهِ إذا راحَ نَحوَ الجَمرَةِ البيضُ كَالدُمى(٦)

وقول أبي حية:

إِذَا مَا تَقَاضَى المَرْءَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لاَ يَمَلُّ التَّقَاضِيَا(٧)

فأشار إلى حسنها وقَبُولها في البيتين السابقين؛ خلافًا لورودها في بيت المتنبي:

لَوِ الفَلَكُ الدَوّارُ أَبغَضتَ سَعيَهُ لَعَوَّقَهُ شَيءٌ عَنِ الدَوَرانِ(٨)

فإنها في هذا البيت تقلّ وتضؤل بحسب نبلها وحسنها في البيتين السابقين(٩).

د- الحجاج بالتعريف:

وهو من أساليب الحجاج والإقناع الشائعة؛ حيث يلجأ إليها المتكلم لامتلاك قواعد الابتداء البرهاني التي يتقوَّم بها محيط الاعتقاد، ويُصنع من خلالها مآل الاقتناع(١٠)، ويمثل حجة قوية استنادًا إلى صحة التعريف وقَبُوله عند المتلقي.

ويعدُّ التعريف شكلًا حجاجيًّا، ونمطًا برهانيًّا ظهر الحجاج به عند إيراد التعريفات للألوان البلاغية، أو

(١) ديوان امرئ القيس، تحقيق وشرح: حسن سندوبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٥، ٢٠٠٤م، ص٨.

(٢) ديوان البحتري، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، د.ت، ٢/٧٣٠.

(٣) ينظر: عبد الرؤوف مخلوف، البَاقِلَّانيّ وكتابه، ص ٤١٢.

(٤) السابق، ص ٢١٩.

(٥) السابق، ص ٤٦.

(٦) ديوان عمر بن أبي ربيعة، شرح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٥٢م، ص ٤٥١.

(٧) ينظر: الشعر والشعراء (٢/٧٧٥) ، والبيان والتبيين (٢/١٥٨) .

(٨) ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٤٥٧.

(٩) ينظر: دلائل الإعجاز، ص٤٧ – ٤٨.

(١٠) ينظر: الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ص ٤١٤.

توضيح المفاهيم التي يناقشها علماء المدونة.
ومنه عند **الرُّمَّانيّ** الذي حوت رسالته العديد من التعريفات للألوان البلاغية التي هي أقسام البلاغة عنده.
فقال: "الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، والإيجاز على وجهين: حذف وقصر "(١).
وقال أيضًا: "التشبيه هو القصد على أن أحد الشيئين يسدّ مسد الآخر في حس أو عقل"(٢). وغيرها من التعريفات التي شاعت بعد ذلك في كتب البلاغيين.
وفي حديث **الخطابيّ** عن المعارضة يبين ما يحسن أن يتوفر للمتعارضين من شروط وخصائص هي التساوي والتقارب في الأداء والأسلوب وإن اختلفا في المقدرة والقيمة الفنية، فيعرّفها بأنها: "إنما المعارضة على أحد وجوه منها أن يتبارى الرجلان في شعر أو خطبة أو محاورة، فيأتي كل واحد منهما بأمر محدث من وصف ما تنازعاه، وبيان ما تباريا فيه يوازي بذلك صاحبه أو يزيد عليه، فيفصل الحكم عند ذلك بينهما بما يوجبه النظر من التساوي والتفاضل "(٣)
كما عرَّف **البَاقِلَّانيّ** المساواة من البديع بقوله: "وهي أن يكون اللفظ مساويًا للمعنى، لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، وذلك يعد من البلاغة "(٤)

ه-الحجاج بالتفريع:
ويسمى كذلك تقسيم الكل إلى أجزاء، وهو "ذكر المرسل حجته كليًّا في أول الأمر، ثم يعود إلى تعداد أجزائها؛ فكل جزء منها بمنزلة دليل على دعواه"(٥)
ومن الاحتجاج بأسلوب التفريع عند **الرُّمَّانيّ** عندما أجمل بقوله: "وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات: ترك المعارضة، التحدي للكافة، الصرفة، البلاغة، الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، نقض العادة، قياسه بكل معجز."(٦) ثم أخذ في بيانِ الوجهِ الرابعِ وشرحه، وهو الوجهُ البلاغي، وشغل به معظمَ رسالته، ثم عاد إلى الوجوه الأخرى، فأوجز بيانها.
وقد مهَّد الرُّمَّانيّ لحديثه عن الوجه البلاغي بأن جعل البلاغة على ثلاث طبقات: "منها ما هو في أعلى طبقة وأدنى طبقة، فما كان في أعلى طبقة معجز هو بلاغة القرآن، وما كان فيما دون ذلك ممكن، كبلاغة الناس"(٧).
ثم قسَّم البلاغة إلى عشرة أقسام، وهي: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والمبالغة، وحسن البيان، والتلاؤم، والتصريف، والتضمين، والفواصل، والتجانس، ثم فصّل القول في هذه الفنون، مستشهدًا عليها من نظم القرآن، أو الشعر؛ ليثبت أن القرآن بلغ الغاية والمنزلة التي لا تدانيها منزلة في كل وجوه البلاغة المعروفة.
ويظهر اعتماد الرُّمَّانيّ في حجاجه لآرائه البلاغية على التفريع وتقسيم الكل إلى أجزاء، بأسلوب تعليمي موجز يوضح المسائل البلاغية للمخاطب ويحمله على الإذعان والقَبُول.
و**الخطابيّ** في بحثه عن باطن العلة في البلاغة التي تختص بالقرآن، والتي حاول أن يحدّد بها الوجه الذي يرتضيه للإعجاز قال:

---

(١) النكت في إعجاز القرآن، ص ٧٦.
(٢) السابق، ص ٨٠.
(٣) بيان إعجاز القرآن، ص ٥٨.
(٤) السابق، ص ٨٩.
(٥) عبد الهادي ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص ٤٩٤.
(٦) النكت في إعجاز القرآن، ص ٧٥
(٧) السابق، الصفحة نفسها .

"دلَّ النظر، وشاهد العبر على أن السبب له، والعلة فيه، أن أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية، فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل. وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، دون النوع الهجين المذموم، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة، فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والقسم الثاني أوسطه وأقصره، والقسم الثالث أدناه وأقربه، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما، كالمتضادين؛ لأن العذوبة نتاج السهولة. والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعًا من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبأ كل واحد منها على الآخر فضيلة خُصَّ بها القرآن، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره؛ ليكون آية بينة لِنَبِيِّهِ، ودلالةً على صحة ما دعا إليه من أمر دينه[١].

والمتأمل لكلام الخطابيّ هذا يجد أنه يجعل وجه الإعجاز البلاغي في امتزاج المتضادات وتآلف المختلفين في بيان واحد، وخطاب متسق لا يمكن اجتماعها في بلاغة البشر، ومع أن الخطابيّ لم يبين مفهومه لامتزاج تلك الأساليب المتباينة على وجهٍ يُظهر إعجاز النص القرآني، إلا أنه تمكَّن من توظيف التحليل بذكر الأنواع والأقسام التي تشتمل عليها أجناس الكلام توظيفًا حجاجيًّا ليخلص بنتيجة هي إعجاز النص القرآني وتفوقه مع تنوع أساليبه وتباين ألفاظه عذوبة وجزالة وسهولة ووعورة؛ ليثبت للناس كافة بأنه من لدن حكيم عليم.

و**البَاقِلَّانيّ** أرجع خصوصية نظم القرآن إلى أنه مختص بعشرة معانٍ فقام بتفريعها وتعدادها لتكون أبلغ في بيان الحجة للنص القرآني، نذكر بعضًا منها:

الأمر الأول "أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة، والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحِكَم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة على هذا الطول، وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبيّنه من الاختلال"[٢].

الأمر الثاني "أن عجيبَ نظمِه، وبديعَ تأليفِه لا يتفاوت، ولا يتباين على ما يتصرف عليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصصٍ، ومواعظَ، واحتجاجٍ، وحِكَمٍ، وأحكامٍ، وإعذارٍ، وإنذارٍ، ووعدٍ وعيدٍ. ونجد في كلام البليغ الكامل، والشاعر المُفْلِق، والخطيب المِصْقَع، يختلف على حَسَب اختلاف هذه الأمور"[٣].

وقد فصَّل القول في تلك الأوجه العشرة، وتكلَّم عنها في أنحاء متفرقة في كتابه.

كذلك نجد **القاضي عبدالجبار** يعوّل في بلاغة الكلام على الفصاحة، فيقول: "اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع.."[٤] فالذي يعوّل عليه القاضي عبدالجبار في حجاجه لبلاغة الكلام هي الفصاحة، والفصاحة لا تتحقق بجزالة الألفاظ وحسن المعاني فحسب؛ ذلك أن الألفاظ في حالة إفرادها لا توصف بالفصاحة ولا بالجزالة، إنما توصف بذلك إذا انضمَّت إلى أخواتها على طريقة مخصوصة، فالقاضي عبدالجبار ينظر إلى الكلمة باعتبارين مختلفين في حال إفرادها وفي حال

(١) السابق، ص٢٦.

(٢) إعجاز القرآن، ص ٣٩.

(٣) السابق، ص ٤٩.

(٤) السابق، الصفحة نفسها.

نظمها مع غيرها من الكلام، وفي كلتا الحالتين واقعة تحت ثلاثة أحوال:
١- مفهومها في ذاتها من حيث وضعُها الذي لها عند أهلها والدلالة الذاتية.
٢- مفهومها حين تتداول عليها الحركات الإعرابية، (الدلالة الإعرابية).
٣- مفهومها حين تأخذ مكانًا خاصًّا في التركيب فتتقدم أو تتأخر (دلالة السياق)[١]. وهو بذلك يستعمل الحجاج بتفريع المسألة الواحدة وذكر أحوالها التي تنص عليها نظرته النقدية لفصاحة الكلام؛ مما يحمل المخاطب على الاقتناع بوضوح فكرته وسلامة حجته التي أنفق لإثباتها صفحات عديدة من كتابه، وهو انتقال شبه منطقي يبدأ بعرض فكرته حول فصاحة الكلام، ثم يضبط حدودها، ويحلّل معناها.

الخاتمة:

ويمكن تلخيص أهم ما تمَّ رصده من خصائص الحجاج في مدونة علماء الإعجاز في هذه الدراسة في النقاط الآتية:

١-تنوَّع أساليب الحجاج حول إعجاز القرآن الكريم في مدونة الدراسة في صورٍ منها: الحجاج العقلي، الذي ظهر بوضوح عند القاضي عبدالجبار المعتزلي، والحجاج التمثيلي أو البلاغي عند الرُّمَّانيّ والبَاقِلَّانيّ و الحجاج اللُّغَويّ عند الخطابيّ، ومزج عبد القاهر الـجُرْجَانيّ بين أنواع الحجاج العقلي واللُّغَويّ والبلاغي باقتدار وبيان ؛مما أكسب مدونة علماء الإعجاز الطبيعة الحجاجية التي تستهدف الإقناع بشتى الوسائل والأساليب التي تتعدد وتجعل من الصعب استقصاؤها وحصرها في هذه الدراسة، وأن ما ذُكر منها هو على سبيل التمثيل لا الحصر.

٢-ظهور الخلفية المذهبية في تحديد ما ينجز من الأفعال الكلامية؛ فنجد أن انتماء الخطابيّ والبَاقِلَّانيّ والـجُرْجَانيّ للمذهب الأشعري جعلهم محتفظين بمبادئه في دراساتهم ؛بحيث جُعِلَ مدار الكلام على الخبر والأسلوب الخبري من جهة ربطه بفعلي الإثبات أو النفي.

٤- الاعتماد على استراتيجيات خطابية خاصة بكل عالم تمتد من مرحلة السياق ذهنيًّا والاستعداد للمناظرة لإثبات إعجاز القرآن الكريم من جميع النواحي، بدءًا بإثبات نبوة النبي محمد -ρ- باعتباره حامل رسالة القرآن إلى إثبات معجزته بكل أساليب الحجاج، والردُّ على مزاعم الطاعنين والمشككين في وجه إعجازه الذي يكاد يتفق علماء الإعجاز الذين تناولتهم الدراسة على الإعجاز البلاغي على تباين بينهم في المنطلقات التي اعتمدوا عليها في حجاجهم.

٥- استثمار الروابط الحجاجية ودلالتها في ترتيب الحجج ونسجها في خطاب واحد متكامل؛ فتقوّي كل حجة منها الحجة الأخرى وظهر ذلك جليا من خلال أمثلة الدراسة.

٦- طغى الأسلوب الحواري في مدونة الدراسة؛ لتحقيق غرض حجاجي رئيس وهو توجيه المخاطب إلى فكرة بعينها، أو توضيح قضية.

٧- توظيف الصورة الحجاجية في المدونة لغايات مختلفة كالشرح والتوكيد والاستدلال؛ للتأثير في المخاطب وإقناعه كما وظّفت لترسيخ قيم شرعية وتربوية وأدبية.

٨- تفاعل الاستدلال العقلي والمنطقي مع عناصر اللغة والسياق لإثبات الحجة المنطقية، وله صور كثيرة في المدونة، وما ورد في الدراسة هو على سبيل التمثيل وليس الاستقصاء والحصر.

٩-تميّز الحجاج التداولي في المدونة بملاءمته لمقاصد الموضوع والحال من جهة، وللمقام المصاحب

(١) ينظر: السابق، (١٩٩/١٦) .

للخطاب من جهة أخرى ، و نعني به الموضوع الإعجازي .

١٠-إثبات الحجاج في المدونة أن الإعجاز القرآني كامن في نظمه، والذي اكتمل وتبلور في نظرية واضحة المعالم عند عبد القاهر الـجُرْجَانيّ، كما أوضح مقومات الأدبية في خطاب علماء الإعجاز جميعهم .

١١-التقارب بين بنية الحجاج في مدونة علماء الإعجاز وبين بنى الحجاج في الدرس اللساني الحديث على اختلاف بينهما في آلية التناول ومرتكزات الاشتغال.

ثبت المراجع والمصادر:

١. أبو موسى، محمد محمد الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤، ٢٠١٢م.
٢. الأنصاري ،مكرم بن منظور ، لسان العرب، دار صادر، بيروت،ط٣، ١٤١٤ه
٣. الأسد آبازي، القاضي عبدالجبَّار بن أحمد، إعجاز القرآن (الجزء السادس عشر من المغني) قوَّم نصه: أمين الخولي، مصر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ط، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.
٤. البَاقِلَّانيّ، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط٣. د. ت
٥. بانقيب، عبد الله عبدالرحمن، مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز، دار كنوز إشبيليا، الرياض، ط١، ٢٠٠٩م .
٦. الـجُرْجَانيّ، أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن، دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، مصر، .١٩٩م.
٧. أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط١ ١٤١٢ه /١٩٩١م.
٨. الرسالة الشافية، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، ١٩٧٩م .
٩. جروان، فتحي عبدالرحمن ،تعليم التفكير مفاهيم وتطبيقات، دار الفكر، الأردن، عمان، ط٢، ٢٠٠٧م
١٠. الدريدي، سامية، الحجاج في الشعر العربي من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠٠٨م.
١١. ديك، فان ، النص والسياق: استقصاء البحث الدلالي والتداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م
١٢. رضوان الرقبي، البلاغة والحجاج، بحث في تداولية الخطاب، إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٨م، ص١١٠.
١٣. الرُّمَّانيّ، الخطابيّ، وعبدالقاهر الـجُرْجَانيّ. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، مصر. دار المعارف، ط٨، ٢٠١٥م.
١٤. الزركشي، بدر الدين محمد، البحر المحيط في أصول الفقه، دار الكتبي، ط١، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م
١٥. السامرائي، مهدي صالح، تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، دار ابن كثير، بيروت، ط١، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م .
١٦. السبكي، علي عبد الكافي، الإبهاج في شرح منهاج الوصول لعلم الأصول للبيضاوي، تحقيق:

جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م،
١٧. الشعبان، علي، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل في نماذج ممثلة في تفسير سورة البقرة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠١٠م .
١٨. الشهري، عبد الهادي ظافر، استراتيجيات الخطاب مقاربة لُغَوِيَّة تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
١٩. صحراوي، مسعود، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهر الأفعال الكلامية والتراث اللساني العربي، دار التنوير، تونس، ط٢، ٢٠٠٨.
٢٠. صكوجي، كورنيليا فون راد، الحجاج في المقام المدرسي، منشورات كلية منوبة، تونس، ٢٠٠٣م.
٢١. صمود، حمادي، من تجليات الخطاب البلاغي، دار قرطاج، تونس، ط١، ١٩٩٩م.
٢٢. أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إصدار فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف: حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس، ١٩٩٩م
٢٣. صولة، عبد الله، الحجاج في القرآن الكريم، دار الفارابي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
٢٤. الحجاج أطره ومنطلقاته " من خلال مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتكا "، كلية الآداب، منوبة، تونس، د ت
٢٥. الطلبة، محمد سالم، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الحديثة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٨م .
٢٦. الطلحي ،ردة الله بن ردة بن ضيف الله ، دلالة السياق، منشورات جامعة أم القرى ، السعودية، ١٣٢٤هـ
٢٧. عبدالرحمن، طه، اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠١٢م .
٢٨. عشير ،عبد السلام ،عندما نتواصل نغير- تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج ، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م ،
٢٩. عبدالمجيد ،جميل ، البلاغة والاتصال، دار غريب، د. ط، د.ت
٣٠. علي ،محمد يونس ، وصف اللغة العربية دلاليًّا، منشورات جامعة الفاتح، ليبيا، ١٩٩٣م
٣١. في أصول الحوار، تجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٤، ٢٠١٠م.
٣٢. العزاوي، أبو بكر، اللغة والحجاج، مؤسسة الرحاب، بيروت، د.ط، ٢٠٠٩م.
٣٣. عشير، عبدالسلام، عندما نتواصل نغير- تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م .
٣٤. العمري، أحمد جمال، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز البلاغي، نشأتها تطورها حتى القرن السابع الهجري، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، ، ١٤٠٠/١٩٨٥م.
٣٥. العزاوي، أبو بكر، اللغة والحجاج، مؤسسة الرحاب، بيروت، د.ط، ٢٠٠٩م.
٣٦. الخطاب و الحجاج ،مؤسسة الرحاب الحديثة ،بيروت،ط١،٢٠١٠م
٣٧. العليوي ،يوسف ،الأسس المنهجية لدراسة البلاغة القرآنية، دار كنوز إشبيليا ، الرياض، ١٤٣٩هـ
٣٨. في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق، المغرب، ط٢، ٢٠٠٢م.
٣٩. القزويني ،محمد بن عبد الرحمن الخطيب ، الإيضاح في علوم البلاغة ،تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ،دار الجيل ، بيروت ، ط٣

٤٠. المبخوت، شكري،الاستدلال البلاغي، دار الكتاب الجديد ،بيروت، ط٢، ٢٠١٠م
٤١. نظرية الحجاج في اللغة، (مقال) ضمن كتاب، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إصدار فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف: حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس، ١٩٩٩م.
٤٢. مخلوف، عبد الرؤوف، البَاقِلَّانيّ وكتابه إعجاز القرآن، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ط.
٤٣. المرادي ،الحسن بن قاسم ، الجني الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م
٤٤. المغامسي، آمال يوسف، الحجاج في الحديث النبوي، ، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ط١، ٢٠١٦م.
٤٥. علوي، حافظ إسماعيل، الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠١٠.
٤٦. الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكة، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، دار القلم، دمشق، ط٤، ١٩٩٣م.
٤٧. ميلاد، خالد، الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط١، ٢٠٠١م.
٤٨. مفتاح ،محمد ، المقصد والاستراتيجية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة البحوث والمناظرات، الدار البيضاء، ١٩٩٣م
٤٩. ناظم، حسن، البنى الأسلوبية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٢ م .
٥٠. نظيف، محمد، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية، إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٠م.

دوريات

محمد الولي، "السياق إشكالية قديمة في أضواء جديدة"، مجلة الإحياء ، مجلة فصلية تصدرها الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، المغرب، العدد٢٥، ٢٠٠٧م

رشيد الراجتي، الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، (مقال) مجلة عالم الفكر ، العدد٣٤،يوليو ،٢٠٠٥م

The Argumentative Speech in the Writings of Quranic Miracle Scholars in the Fourth and Fifth Centuries AH

DR. LAYLA AL SHAMMARI

Abstract

This study aims to uncover the rhetorical and critical participation of Quranic miracle scholars in their writings theoretically and practically, manifestations of the relation of miraculous blog with argumentation as an axis upon which it is based. This study adopted the inductive approach to gather the most important argumentative techniques and styles of the blog. It also adopted the elements of the pragmatic approach according to the sections of the study. It tackled the theoretical approach to study terms (argumentation and pragmatics), handled the levels of pragmatics in the argumentative letter of Quranic miracle scholars, the linguistic argumentation, and the rhetorical argumentation at the level of word, structure, and image. The results showed emergence of rhetorical argumentative language adopted by I'jaz scholars to be followed as an example, approaching between the structure of argumentation in the blog of I'jaz scholars and the structures of argumentation in the modern linguistic lesson despite being different in handling mechanism and operation foci. Therefore, we find that it is in totality an answer and explanation to every scholar's opinion concerning the issue of wondering about the fact of I'jaz in the Noble Quran around which their words revolve.

***Keywords**: Argumentation, speech, Quranic miracle scholars, pragmatics*